بحوث تربوية

تهذيب
صحيح السيرة النبوية

للدكتور أكرم ضياء العمري
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية

المرحلة المكية
الإسراء
الهجرة
المرحلة المدنية
المغازي
فتح مكة
وفاته

تهذيب رائد عبدالعزيز المهيدب

مركز استراتيجيات التربية

تهذيب

السيرة النبوية الصحيحة

محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية

تأليف

الدكتور أكرم ضياء العمري

تهذيب رائد عبد العزيز المهيدب

رمضان ١٤٤١هـ

https://msky.ws/

مقدمة التهذيب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ...

فقد كنَّا نتمتع ونحن نقرأ في سيرة ابن هشام والسير الأخرى، ونفرح بالعيش مع الرسول صلى الله عليه وسلم والعيش مع آل بيته وصحابته رضوان الله عليهم، وكان يقع في نفسي لو تم تحقيق السيرة خاصة وأننا كنا نحاول تحقيق بعض الأحداث منها، ثم وقع في يدي أول تحقيق رأيته للسيرة للدكتور أكرم العمري، وهو الرجل الذي تخصص في هذا العلم لعقود عديدة، والذي حصل على **جائزة الملك فيصل العالمية** على كتابه "السيرة النبوية الصحيحة"، فبدلاً أن نقرأ في كتب السير قصة خيمة أم معبد الضعيفة تأتي لنا رواية أبو معبد الأصح منها في السيرة الصحيحة، وبدلاً من نشر الضعيف كمقولة (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الدين) فإننا نطّلع على الرواية الصحيحة في هذه الحادثة، ولا مكان في صحيح السيرة النبوية لنشيد "طلع البدر علينا" في حادثة الهجرة التي لم تصح لا رواية ولا عقلاً، حيث أن "ثنية الوداع" شمال المدينة ومكة جنوبها وقباء التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع جنوبها أيضاً.

ثم وبعد الاطلاع على السيرة النبوية الصحيحة وقع في نفسي أيضاً لو استبعدت النقاشات في الصنعة الحديثية التي حصلت في كتابة السيرة النبوية الصحيحة، ولم يبق في هذا الكتاب إلا السيرة فقط **لتكون مرجعاً للتربية والمربين**، وبعد سنين جاءت الفرصة لتهذيب صحيح السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري، وتمتَّعت في الإبحار في هذه السيرة وفي هذا الكتاب الرائع، فليفرح القلب ولتدمع العين ولتهاجر النفس إلى تلك الأحداث الجميلة الرائعة.

وسبب اختيار هذا الكتاب أولاً هو **الاهتمام بالتحقيق**، ولأن الدكتور أكرم العمري **متخصّص في هذا الجانب** كما ذكرنا، وقد اطلع على بحوث ودراسات كثيرة متخصصة في هذا العلم، وقد استبعدت كل نقاش ليس له علاقة مباشرة في رواية السيرة الصحيحة من ذكر أسانيد ومراجع ونقاشات حول تصحيح أو تضعيف روايات، كما أن الأحداث التي أبقيناها هنا هي ما توقعنا أنه مراد الدكتور أكرم العمري من التحقيق، وأبقينا العناوين مع تغيير نادر بها، فكان هذا التهذيب الذي اختصر هذا السفر من أكثر من ٧٠٠ صفحة إلى قريب من ٢٠٠ صفحة بدون حذف أي حدث من أحداث السيرة الصحيحة، ومن أراد الاطلاع على النقاشات الحديثية والأحداث التي لا تصح فيمكنه الرجوع إلى الكتاب الأصل.

وعن مستوى التصحيح والتضعيف يقول الدكتور أكرم العمري معبراً عن وجهات نظره: "والأخذ في بعض المواضع بما لم تثبت هذه الأخبار برواية صحيحة، ولكنها مما يتساهل فيه عادة، وقد وردت رواية من طرق تعتضد ببعضها لإثبات الحدث تاريخياً"، فقد يروى في التاريخ ما "لا يصلح للاحتجاج به في أحكام السياسة الشرعية، وصلح لوصف الوقائع التأريخية".

ولفت نظري بأن غالب علماء السيرة -ومنهم الدكتور أكرم العمري- ركَّزوا في المرحلة المدنية على المغازي فكانت غالب صفحاتهم، مع أن هناك كثير من السيرة لم يكتب مع المغازي كالشمائل النبوية، وعباداته، وطرق تربية النبي صلى الله عليه وسلم الإيمانية والعقدية والاقتصادية والاجتماعية، وحياته مع أهل بيته وأطفاله، وكيف شجَّع على العمل وعلى العلم وأخرج أمَّة متعلمة بعدما كانت أميَّة، وغيرها من الأمور التي أخذت غالب أيام النبي صلى الله عليه وسلم، **فكنت أرجو أن تكتب سيرة وفيها كل حياته ومن ضمنها المغازي**.

وكما يقال في كل كتاب أنه لا يكمل إلا كتاب الله عز وجل، قد صححنا بعض الملاحظات وقدمنا وأخَّرنا بعض الروايات، وكذلك فإن هذا التهذيب لن يكمل أيضاً، ولكن لا نرجو إلا توفيق الله عز وجل، فما كان من خطأ فنستغفر الله منه وما كان من حق فمن توفيق الله عز وجل.

ودعائي بأن يغفر الله لي ولأسرتي وقرابتي ومشايخي ومن أحبُّونا في الله أو أحببناهم وللمؤمنين والمؤمنات ولكل من سعى في هذا الكتاب نصحاً أو نشراً أو تطويراً أو تصحيحاً.

أبوأحمد رائد عبد العزيز المهيدب

رمضان ١٤٤١هـ

ما قبل البعثة

مكة

تقع مكة في بطن واد، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي، ويعرف بطن الوادي بالبطحاء ويقع بها البيت العتيق وتحيط به دور قريش، أما المنطقة المرتفعة فتعرف بالمعلاة. وكانت صلات النَّسب بين قريش وكنانة – حيث إن قريشاً تنتمي إلى كنانة – التي تسكن قريباً من مكة، تعطي مكة عمقاً إستراتيجياً، وقد وثَّقت صلة النسب بالمحالفات أيضاً، وكان الأحابيش الذين يعيشون قريباً من مكة حلفاء لقريش أيضاً، وكانوا يُستخدمون في حراسة القوافل المكيَّة، وامتدت الأحلاف لتشمل القبائل التي تقع على خطوط التجارة المكيَّة إلى الشام والعراق واليمن، وكانت قريش تدفع لهم جعالات معينة، وتشرك زعماءهم في تجارتها، وسُمّي هذا بـ (الإيلاف) الذي أوجده هاشم بن عبد مناف، بل تمكن هاشم بن عبد مناف من الحصول على حق التجارة داخل أراضي الروم والفرس بالاتفاق مع حكّامهم، وعقد المعاهدات معهم، وسلوك مسلك الحياد بين القوَّتين، فارس والروم.

واقتصاد مكة يقوم أساساً على التجارة، أما الصناعة فكانت قليلة أبرزها صناعة الأسلحة من رماح وسيوف ودروع ونبال وسكاكين، ثم صناعة الفخار والنجارة لصناعة الأسرة والأرائك، كما أن الموارد الاقتصادية الأخرى مثل تربية الماشية والصيد كانت معروفة، ولكن بقيت التجارة أساساً لاقتصاد مكة، فكانت سياسة الإيلاف والمعاهدات سبباً في ازدهار مكة، وتكاثر رؤوس الأموال فيها.

وصارت القوافل الكبيرة تموَّل من قبل عدد كبير من المكيّين بشكل أسهم تزيد وتنقص حسب قدراتهم المالية، وهكذا ساعدت التجارة على تعميق أواصر المجتمع المكي، إذ ربطته بالمصالح إلى جانب وشائج القربى، لكن هذه المشاركة لم تحل دون نشوء طبقة غنيَّة متخمة وأخرى متوسطة وثالثة معدمة، فرؤوس الأموال الكبيرة بيد الأغنياء، وهي تتعاظم بالتِّجارة وبالإقراض الربوي للمحتاجين، وبالاستثمار في الزراعة في الطائف المجاورة، وهكذا كان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف الذهب والفضة في حين كان أكثر أهل مكة فقراء.

وكانت تجارة مكة تسلك أحياناً الطرق البحرية إلى جانب الطرق البريَّة، لكنها لم تكن تملك أسطولاً تجارياً، بل تستخدم السفن الحبشيَّة في العبور إلى الحبشة، أما السفن الروميَّة فكانت تصل إلى ميناء الشعيبة قبل أن تأخذ مكانها جدة في خلافة عثمان رضي الله

عنه. وكانت قريش تحصل من الحبشة على البخور والأطياب وريش النعام والعاج والجلود والتوابل والرقيق الأسود، وتحصل من الشام على القمح والدقيق والزيت والخمر، وتحصل من الهند على الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل والمنسوجات الحريريَّة والقطنية والكتانية والزعفران والآنية الفضية والنحاسية والحديدية. وكانت تحمل حاصلات بلاد العرب من الزيت والبلح والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن.

والاقتصاد التجاري يحتاج إلى الأمن، وقريش كانت تستعمل سياسة الحلم واللين للوصول إلى غاياتها التجارية وأمان طرقها الخارجية، ولم تدخل قريش في حروب قبل الإسلام سوى حروب الفجار الأربع، التي هي حروب صغيرة ومناوشات، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم آخرها وهو الفجار الرابع وعمره عشرون سنة، ولم تحرز قريش النصر على الأعراب في تلك المناوشات، وقد ساعدها على تحقيق الأمن وجود الكعبة التي يحج إليها العرب من شتى الأصقاع، حيث تحيط بها أصنامهم الستون والثلاث مائة بعضها جلبها عمرو بن لحي الخزاعي من الشام مثل هبل– وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام –، وبعضها صنع محلياً، وبعضها ليست مصنوعة، بل هي حجارة مثل أساف ونائلة، وكون مكة مركزاً لعبادة العرب يمنح قريشاً الاحترام، ويحقق لها الإيلاف مع القبائل، والحماية من ثمّ لتجارتها.

وحرمة مكة قديمة ترجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقد ظلت أرضاً مقدسةً وحرماً آمناً حتى ظهور الإسلام، الذي أكَّد على حرمتها وقدسيتها، ولم يقتصر تقديس الكعبة على المكيين بل امتد إلى العرب في شبه الجزيرة، ولم تتمكن بيوت الأوثان والأصنام من منافستها مثل بيت الأقيصر، وبيت ذي الخلصة، وبيت صنعاء، وبيت رضاء، وبيت نجران، ولم تنجح محاولات أبرهة لتحويل الحج إلى القليس التي ابتناها في صنعاء بعد أن أخفقت حملته العسكرية على مكة سنة ٥٧٠ م.

ورغم وجود أخبار عن سكان مكة القدامى، وهم جرهم ثم خزاعة ثم قريش، فإن معظم الأخبار تخصّ قريشاً، خاصّة بعد أن جمع قصي بن كلاب عشائر قريش واستولى بها على مقاليد الأمور بمكة، وكانت بيد خزاعة ووزع رباع مكة وخططها بين قريش، فبدأت تبني دورها، داخل الحرم بعد أن كانت منطقة خالية من البناء، وكان الشجر مقدساً لا يقطع، حتى قطعه قصي، فتجرأ الناس على قطعه. ثم قام قصي بتنظيم مكة فقسَّم الوظائف والواجبات بين أولاده، وهي الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة، وكان قصي قد اتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تتشاور في أمور السلم والحرب، وفيها تجري عقود الزواج والمعاملات، فهي دار مشورة ودار حكومة يديرها (الملأ)، الذين

يمثّلون زعماء الأسر وأصحاب الرأي في مكة، ويندر أن يقل عمر أحدهم عن سن الأربعين، ويتقيد الناس بأوامر الندوة عادةً وعرفاً، فليس ثمّة قانون مكتوب، وليس ثمة رئيس أو حاكم في مكة، ولا يتم انتخاب أعضاء الندوة بالاقتراع بل يحددهم العرف، ويمارس رئيس كل عشيرة صلاحياته على عشيرته. وقد فرض قصي العُشر على التجار القادمين إلى مكة من غير أهلها، فصار أحد مصادر الثروة في مكة، وصار أمر قصي في قريش كالدين المتبع اعترافاً بفضله وشرفه ويمنه، وقد اتسم (الملأ) بالمحافظة الشديدة على العقائد والتقاليد والأعراف السائدة، لتأكيد حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية، وكل ذلك يتحقق بالمحافظة على الأوضاع السائدة ووحدة أهل مكة، مما يفسر شدة مقاومتهم للإسلام عند ظهوره، فقد رأوا فيه تهديداً لوحدة قريش.

لقد قام أبناء قصي وأحفادهم بأعمال مهمة أدت إلى ازدهار مكة وفي الوقت نفسه أبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم ومكنَّت لسيادتهم، فإن قصيّاً هو الذي جمع قريشاً ومكّن لها في مكة ونظَّم شؤونها، وأمسك أبناؤه بزمام وظائفه من بعده من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، وتمكّن هاشم بن عبد مناف بن قصي من عقد الإيلاف وتوسيع نطاق التجارة المكيَّة بإخراجها من الحدود المحليَّة إلى النطاق الدولي، وقام بحفر عدة آبار لخدمة قريش والحجيج معاً، وعرف المطلب أخو هاشم بالنسك والأمر بترك الظلم والبغي، والحثِّ على مكارم الأخلاق، وعرف عبدالمطلب ابن هاشم بالفيَّاض لجوده، وبشيبة الحمد لكثرة حمد الناس له، وقد اشتهر بحفر ماء زمزم التي طغت على مياه آبار مكة الأخرى لغزارتها ودوامها، وأنها ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى، وكان أبناء قصى قبل حفرها يأتون بالمياه من آبار خارج مكة.

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ولا زعيم مكة الوحيد، ولكن صلته بشؤون البيت العتيق وخدمة الحجيج جعلته من وجهاء مكة، وهو الذي حادث أبرهة عندما غزا الأخير مكة. وقبيل ظهور الإسلام تولى أبو طالب بن عبد المطلب الرفادة والسقاية، ولم يكن له مال ينفقه في هذا السبيل، فاستدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم فأنفقها، ولما لم يتمكن من ردِّ المبلغ تنازل عن الرفادة والسقاية إلى العباس بن عبد المطلب، وهكذا فإن عشيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتبوأ مكانةً اجتماعيةً خاصةً في مكة عند ظهور الإسلام، برغم أنهم كانوا وسطاً في الثراء، وربما كانوا دون أوساط تجار مكة، وكان الثراء قبيل الإسلام في بني عبد شمس وبني نوفل وبني مخزوم، وقد نازعتهم العشائر القرشية الأخرى السيادة على مكة، وكان النزاع على السيادة بين تلك العشائر القرشية قد بدأ بين أبناء قصي، وأدى إلى انقسام العشائر وحدثت منافرات ومنازعات داخل

الأسرة الواحدة أحياناً، وقد ساعد الأمن والسلام الذي ساد مكة قبيل الإسلام على بقاء زعمائها خلافاً لزعماء المدينة الذين أفنتهم الحروب الداخلية، وهذا أحد أسباب شدة المقاومة للدعوة الإسلامية من قبل قريش.

ومن أبرز رجالات مكة في عصر الرسالة أبو جهل والحارث وعمرو أبناء المغيرة بن هشام المخزومي، وقد اشتهرت عداوة أبي جهل وعمرو للإسلام، وصدِّهما الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيام أبي جهل بتعذيب المستضعفين من المسلمين، ومنهم حكيم بن حزام بن خويلد، والحكم بن أبي العاص بن أمية، والوليد بن المغيرة المخزومي وكان عظيم الثراء، متعالياً متغطرساً، وكان أحد المستهزئين بالإسلام أنفة وغروراً واستكباراً.

ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب الذي اشتهر بقيادة تجارة قريش الخارجية بالإضافة إلى قيادة مكة في الحرب، وكان معانداً للإسلام، ولعله أكثر الزعماء تصدياً للإسلام حتى إسلامه وقت فتح مكة.

ومنهم عبد العزى بن عبد المطلب من أغنياء مكة ووجهائها الذين وقفوا بقوة أمام الدعوة الإسلامية، ومنهم أبو لهب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من وجهاء مكة، وعرف بمواقفه العدائية من الإسلام، ولا شك أن هذا العدد الكبير من الزعماء الأقوياء الذين وقفوا أمام الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء وأوقعوا بأتباعها البلاء يوضح الظروف الصعوبات التي واجهت الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة.

الحياة الدينية في مكة

كانت هاجر ورضيعها أول الساكنين بمكة، ثم جاءت جرهم فاستقرت إلى جوار زمزم، ثم ابتنى إبراهيم الكعبة وهي أول بيت لعبادة الله، فإبراهيم عليه السلام كان رسولاً يدعو إلى عقيدة التوحيد، فلا بد أن جرهم اتبعت الإبراهيمية لتتم المحافظة على التوحيد في الأجيال الأولى بمكة التي أعقبت بناء الكعبة، ويبدو أن عقيدة التوحيد في نفوس الناس أصابها انحراف نحو عبادة الأصنام والأوثان، وتشير كتب الأخبار والتاريخ إلى أثر عمرو بن لحي الخزاعي في جلب هذه الأصنام من الشام إلى مكة وقيامه بالدعوة إلى عبادتها، وكانت تعاليم الإبراهيمية في زمن عمرو بن لحي ضعيفة التأثير في نفوس الناس، وتفاصيل الديانة قد ضاعت، من هنا ظهر استعداد الناس لقبول الشرك وما يتصل به من عقائد باطلة. وإذا كانت هذه الصورة مأخوذة من أقوال الإخباريين التي كثيراً ما تتضارب وتتعارض فإن من الثابت أن عمرو بن لحي الخزاعي قد ابتدع عادات ومعتقدات في مكة مخالفة للدين الحق، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن أنه رآه في المنام يجر قصبه في النار، وأنه أول من سيّب السوائب، وهو تحريم ظهر الأنعام فلا يحمل عليها شيء ولا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا يركبها أحد، وهذا تحريم لم يأذن به الله تعالى.

وقد بين الله تعالى في القرآن أن العرب المشركين كانوا يعبدون آلهة مزعومة لتقربهم إلى الله زلفى، ولتشفع لهم عنده، ﴿ويعبدون من دون الله ما يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، فهم يعرفون الله لكنهم يستشفعون إليه بالآلهة، وقد اتصلت فيهم هذه الوثنية مع شعائرها وعاداتها واعتقاداتها عقوداً متتابعة بسبب التقليد، فكل جيل جديد يرث عن أسلافه هذه الوثنية، فترسخت على مر الأيام : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون)، وقد أعماهم التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل والأخذ بالدليل الصحيح، واستتبع الانحراف في العقيدة انحراف في العبادة والسلوك والشعائر والشرائع، فإذا بمناسك الحج تدخلها الوثنية، حيث وضعت الأصنام حول الكعبة، وجرى الطواف حولها مع التعري من الثياب أحياناً، وأصبحت قريش أخيراً لا تخرج إلى عرفات، بل تقف بمزدلفة خلافاً للناس، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم، إما شراء وإما عارية وإما هبة، فإن وجدوا ذلك فيها وإلا طافوا بالبيت عرايا، وهكذا ابتدعوا وشرعوا ما لم يأذن به الله مع ادعائهم أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وكان تصورهم لله فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته، وينسبون إليه النقائص كالولد والحاجة، فزعموا أن الملائكة بنات الله ﴿ويجعلون لله

البنات﴾، وجعلوا الجن شركاء له سبحانه ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾، ومن معتقداتهم إنكار البعث ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾، فعبادتهم وتقربهم للأصنام بالقرابين والنذور ليس من أجل الآخرة، بل لتحقيق مطالب دنيوية، مثل زيادة الأموال، ودفع الشر والضرر عنهم في هذه الدنيا، إذ لا علم لهم بالآخرة، ويستثنى من عموم المنكرين للبعث عدد ممن كانوا يقولون بالبعث، ومما زادوه في العبادة المكاء والتصدية في المسجد الحرام، وهما التصفير والتصفيق، ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾، وكذلك ذبحهم على النصب تعظيماً للأصنام، كما كانوا يحلفون باللات والعزى، ومن ذلك استسقاؤهم بالأنواء، وأما أخلاقهم وأعرافهم وعاداتهم فكثير منها هدمه الإسلام، ومن خصال الجاهلية تعظيمهم الدنيا والأموال وأصحابها، كما تدل الآية ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، وقد شاعت فيه العيافة والطرق والطيرة والكهانة. وكانوا يتعوذون بالجن خوفاً منهم ﴿وأنَّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾.

فالحقوق التي نالها الإنسان بعد الإسلام مثل حق الحياة والتملك والشورى وحرية العقيدة وتكافؤ الفرص في الحقوق العامة والمساواة أمام الشرع والقضاء، وحقوق المرأة لم تكن ثمرة نضال اجتماعي كما حدث في تاريخ الحضارة الغربية، بل اكتساب الإنسان هذه الحقوق بواسطة الشرع من سلطة عليا مطلقة، ولئن ضعفت المجتمعات الإسلامية بعد عصر الراشدين عن مواصلة السير على نهجهم بنفس المستوى، فإن المسئولية تقع على الناس ولا تقع على الإسلام نفسه.

صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله من أحسن الناس وجهاً، أبيض اللون بياضاً مزهراً، مستدير الوجه، مليحه، واسع الفم، طويل شق العينين، رَجِلَ الشعر – بين الجعودة والسَّبط – يصل إلى شحمة أذنيه، وأحياناً بين أذنيه وعاتقه، وقد يمتد حتى منكبيه أحياناً أخرى، ولم يشيب شعره الأسود إلا اليسير منه، حيث قدر شيبه في أواخر عمره بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، ويميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطيب، عريض الصدر، مبسوط الكفين، كفاه لينتان، قليل لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوة، وهو شعر مجتمع كالزر. وهذه الصفات الجسمية تدل على جمال المظهر، واكتمال الجسم وقدرته على النهوض بالواجبات العظيمة التي انيطت به، فلم ير أعداؤه في مظهره ما يعيبونه عليه أو يلقبونه به على سبيل الانتقاص، وإضافة لحسن خلقته الجبليَّة وسلامة حواسه وأعضائه، فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب.

أما صفاته الخلقية، فقد وصفه القرآن الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها (كان خلقه القرآن)، وتطالعنا صور التواضع المقترن بالمهابة، والحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها، وعدم التطلع إليها عند إدبارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، وقوة العقل، وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير، ولين الجانب ورقة المشاعر وحب الصفح والعفو عن المسيء، والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدة، والجرأة في قول الحق.

النبي المختار

قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، فهذا اصطفاء النبوة، وفي الحديث الصحيح: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)، فهذا اصطفاء النسب، وفي حديث صحيح آخر: (بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرن، حتى كنت من القرن الذي كنت فيها)، فهذا اصطفاء الزمن.

وقد أجمع النسَّابون على نسبه إلى عدنان، ونسبه الذي يسوقه علماء النسب هو: (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس

بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان)، وأما أمه آمنة بنت وهب فإنها من بني زهرة، وقد أقر أبو سفيان أمام هرقل بعلوِّ نسب النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله: (كيف نسبه فيكم؟ فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها).

حفر زمزم

وخلاصة ما حكاه عبد المطلب أنه رأى رؤيا مناميَّة في أربع ليال، يأمره آت بحفر البئر دون أن يحدد موقعها، وفي المرة الرابعة حدّد له موقع البئر، وصرح باسمها (زمزم)، فحفر عبد المطلب في موقعها وكشف عن الماء، فنازعته قريش وطلبت إشراكها معه في الماء، فلم يقبل، فاحتكموا إلى كاهنة، ولكن قبل وصولهم إليها حدث أن نفد الماء عند عبد المطلب، ومن معه، وأبت قريش أن تشاركه بالماء الذي عندها، حرصاً على الماء في الصحراء، فلما أشرف عبد المطلب ومن معه على الهلاك وحفروا قبورهم انبجست عين ماء تحت حافر ناقة عبد المطلب، فشرب القوم جميعاً، واعتبروا ذلك علامة على أحقيَّة عبد المطلب بماء زمزم، فأسلموها إليه، ولا شك أن الحادثة والسيطرة على الماء معاً عززت مكانة بني هاشم في مكة.

نذر عبد المطلب

ونَذَرَ عبد المطلب بن هاشم إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبَّ الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل.

قال حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي - ابن أخي خديجة -: ولدت قبل الفيل بثلاث عشرة سنة وأنا أعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله.

زواج عبد الله من آمنة

وتزوج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وبنو زهرة عشيرة من قريش.

وفاة عبد الله

لم يرَ الرسول صلى الله عليه وسلم أباه، قال تعالى ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾، فقد مات في المدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، وكان في مهمة تجارية، فمرض عند العودة ومات فدفن هناك.

مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل

صح أن مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم الإثنين، عام الفيل التي قال الله عنها: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾، وقد رأت عائشة رضي الله عنها قائد الفيل وسائسه أعميين يستطعمان الناس بمكة، كما بيَّن الصحابي قباث بن أشيم أن أمه أوقفته على بقايا روث فيل أبرهة وقد تغير لونها، وكان يعقل حيث ولد قبل الفيل بسنوات يسيرة.

صفة حمل آمنة به

واحتفت آمنة بمولده صلى الله عليه وسلم، وقد رأت حين وضعته نوراً خرج منها، أضاءت منه قصور بصرى.

مرضعاته

وصح أن ثويبة - مولاة أبي لهب – أرضعته صلى الله عليه وسلم، ويعتبر حمزة بن عبد المطلب أخوه من الرضاعة، كما أن حليمة السعدية أرضعته في بنى سعد.

معجزة شق الصدر

وقعت أحداث شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم وغسله عندما كان طفلاً في الرابعة من عمره، يلعب في بادية بنى سعد، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع

الغلمان، فأخذه فصرعه فشقَّ عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه – أي جمعه وضم بعضه إلى بعض-، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره). ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوّة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحلّ في قلبه شيء إلا التوحيد. وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه.

لقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمه آمنة وجده عبد المطلب، لأنَّ حليمة خافت عليه، ورغبت في إنهاء مسئوليتها عنه برغم حبها له وتعلقها به، فكان مع أمه آمنة إلى أن بلغ ست سنين، حيث توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، فماتت وهي راجعة إلى مكة.

وقد ترك يتم النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه أعمق الأثر، ففي طفولته فقد أمه وكان قد ولد يتيم الأب، ثم إن جدّه حين توفي - وكان عمره اثنتين وثمانين سنة - أوصى أبا طالب - عمّه – به، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثامنة من العمر، ولا شك أن محمداً أحس بفقدان جدّه لما كان يحبّوه به من العطف والرعاية.

وقد وردت روايات تفيد عطف أبي طالب عليه وتعلقه به، وشدة محبته إياه، وساعده محمد صلى الله عليه وسلم في رعي غنم لأهل مكة مقابل قراريط، ولعل ضيق حال أبي طالب هو الذي دفعه إلى العمل لمساعدته، ورعي الغنم فيه دربة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على رعاية البشر فيما بعد، فقد ألف العمل والكفاح منذ طفولته، واعتاد أن يهتم بما حوله، ويبذل العون للآخرين.

قصة بحيرى الراهب

لقد اصطحب أبو طالب النبيَ صلى الله عليه وسلم في سفرة تجارية له إلى الشام، وكان النبي في التاسعة أو العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، وروى أهل السير أن راهباً يدعى بحيرى في مدينة بصرى دعا رجال القافلة القرشية إلى طعام، حيث تعرَّف على النبي من خلال صفاته وأحواله، فعرف أنه يتيم، وأنه يحمل خاتم النبوة بين كتفيه، ورأى

الغمامة تظله من الشمس، وتختم الرواية بتحذير الراهب لأبي طالب عم النبي من اليهود والروم.

شهوده حلف المطيبين

وشهد صلى الله عليه وسلم حلف المطيبين، وأثنى عليه قائلاً: (شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه)، وحلف المطيبين كان بين بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم، وكان الحلف في دار عبد الله بن جدعان، وهو تحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ورد الفضول على أهلها، وقد سمى الحلف بحلف الفضول.

زواجه من خديجة

تزوَّج الرسول صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد خطبها لأبيها خويلد بن أسد فزوجه منها، وكانت رضي الله عنها في الثامنة والعشرين من العمر، وأظهر صلى الله عليه وسلم محبتها وتأثره عند ذكرها بعد وفاتها، لمواقفها في تطمينه عند نزول الوحي عليه ومسارعتها للإيمان به، وهي مواقف مشهورة تدل على مكانة أم المؤمنين خديجة في الإسلام، ومما اتفق عليه أهل العلم أن خديجة أولى أزواجه صلى الله عليه وسلم، وقد أنجبت منه ذكرين هما القاسم وعبد الله (الملقب بالطيب والطاهر)، وأربع بنات هن زينب وأم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية، فأما القاسم وعبد الله فماتا قبل الإسلام، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن، وقد توفيت خديجة رضي الله عنها قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بثلاث سنين.

صيانة الله له قبل البعثة

ولما جددت قريش بناء الكعبة، اشترك صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس في نقل الحجارة، فاقترح عليه العباس أن يرفع إزاره ويجعله على رقبته ليقيه أثر الحجارة ما دام بعيداً عن الناس، فلما فعل سقط على الأرض مغشياً عليه، فلما أفاق طلب أن يشدوا عليه إزاره. وكان عمره حين تجديد بناء الكعبة خمساً وثلاثين سنة، ولم يكن التعري مستنكراً عند

العرب في الجاهلية، فقد كانوا يطوفون بالبيت العتيق عراة إلا الحمس (وهم قريش)، كما أن التعري في الطواف استمر حتى منعهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمره الذي بلَّغه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حج سنة ٩هـ عندما أعلن (ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)، لذلك علق ابن حجر على الحديث السابق بقوله: (وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان مصوناً عما يستقبح قبل البعثة وبعدها).

إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في الوسط القرشي، فقد اختلفت قريش فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، ثم اتفقوا على أن يحكّموا أول داخل من باب بني شيبة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه في وسطه، ثم أمرهم برفعه جميعاً ثم أخذه فوضعه مكانه. وقد ذكر عبد الله بن السائب المخزومي – وهو شاهد عيان اشترك في بناء الكعبة يومئذ – بأن قريشاً قالت لما دخل النبي من باب بني شيبة (أتاكم الأمين)، مما يبرز مكانته في قومه قبيل البعثة.

ومما خالف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً الوقوف بعرفة، وكانت قريش تفيض من مزدلفة على حين يفيض بقية الناس من عرفة، وتعلل قريش ذلك بأنها أهل الحرام، فليس لها أن تخرج من الحرمة، ولا تعظم غيرها كما تعظمها، أما رسول الله فكان يقف بعرفة، فلما رآه جبير بن مطعم واقفاً بعرفة قال: هذا والله من الحمس فما شأنه هاهنا؟! وهذا من توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم ومناكحهم وبيوعهم.

وكان يطوف بالبيت العتيق، وقد طاف معه مولاه زيد بن حارثة مرة، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ثم عاد زيد للمسها ليتأكد من الأمر، فنهاه ثانية فانتهى حتى كانت البعثة، وقد حلف زيد بن حارثة رضي الله عنه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مسَّ منها صنماً حتى أكرمه الله بالوحي.

وقد قدمت للنبي صلى الله عليه وسلم سفرة قبل البعثة فأبى أن يأكل منها، لأنه خشي أن يكون الطعام مما ذبح على النصب، أو لم يذكر اسم الله عليه.

بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم

لقد بشر عيسى عليه السلام قومه بشارة صريحة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً

لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾، وأما تبشير التوراة والإنجيل بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم بصفاته وعلاماته فقد بين القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾.

قال ابن تيمية: "والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم"، ثم قال: "ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتاب ممن أسلم وممن لم يسلم بما وجدوه من ذكره بها، وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله، وأنهم كانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار وبايعوه، ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة.

والوجه الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم، فلو لم يعلم صلى الله عليه وسلم أنه مكتوب عندهم لامتنع أن يخبر بذلك بمرة بعد مرة، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه".

بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته

لقد أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه الطويلة: أن راهب النصارى في عمورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان الفارسي أن يوصيه، فقال الراهب: "أي بني والله ما أعلم بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه"، ثم قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله حين الهجرة، وإهدائه له طعاماً على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول صلى

الله عليه وسلم، ثم إهدائه له طعاماً على أنه هدية وأكله منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على أثر ذلك.

وكذلك فإن يهود المدينة كانوا يعرفون أن زمان بعثة النبي قد اقترب، وكانوا يزعمون أنه منهم، ويتوعدون به العرب، وقد بيَّن الله تعالى أنهم يعرفونه بصفاته التي ذكرت في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، وإنما أنكروا نبوته بعد ظهوره لما تبيَّن لهم أنه من العرب فجحدوا نبوته، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقد قال رجال من الأنصار: "إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنّا نستمع من رجال يهود، كنا أهل شرك، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم"، وقال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم: "وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم".

إرهاصات نبوته

ومن إرهاصات نبوته تسليم الحجر عليه قبل النبوة، ومنها الرؤيا الصادقة وهي أول ما بديء به من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثل فلق الصبح، وقد حبب إليه العزلة والتحنّث "التعبّد" فكان يعتزل قومه في غار حراء، وهو في جبل حراء، ويطل الغار على الكعبة، ويحتاج صعوده إلى جهد، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء.

البعثة المحمدية

بعث رسول الله وعمره أربعون سنة، وثبت أن الوحي نزل عليه أول ما نزل يوم الإثنين، والمشهور أن نزول القرآن بدأ في شهر رمضان.

الوحي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلو في غار حراء، وكان التحنث في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالي أخرى، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء، قالت عائشة رضي الله عنها: (فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾، فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة مالي؟ وأخبرها الخبر، قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصي – وهو ابن عم خديجة أخو أبيها – وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجيَّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم – فيما بلغنا – حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منها نفسه تبدَّى له جبريل فقال: إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك).

ويبدو أن مدة انقطاع الوحي لم تدم طويلاً، حيث اطمأنت نفس الرسول وتهيأ لاستقباله، فتتابع الوحي وكثر، وأول ما نزل بعد فتوره قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر﴾، وقد تكرر إبطاء الوحي في وقت آخر، ليلتين أو ثلاثاً، فقال المشركون: قد ودّع محمدًا ربُّه، فأنزل الله عز وجل: ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدةً، فكان جبينه يتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وكان وجهه يتغير ويكرب، وجسمه يثقل، يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: "فأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي"، وكان صلى الله عليه وسلم يركز ذهنه بشدة لحفظ القرآن، فيحرك به لسانه وشفتيه، فنزلت الآية: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه﴾ تخفيفاً عنه صلى الله عليه وسلم، وكان شوقه إليه وحرصه عليه يدفعه إلى التعجل في تلقيه، كما بينت ذلك الآية: ﴿وَلا تَعَجل بالقران من قبل أن يقضى إليك وحية * وقل رب زدني علماً﴾.

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فأجاب: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس – وهو أشده عليَّ – فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول.

مرحلة الدعوة السرية

بدأت الدعوة الإسلامية بمكة سريّة، وحددت هذه المرحلة بثلاث سنين، وكان المجتمع المكي – شأن سائر الجزيرة العربية – يعتمد في تنظيمه على القبيلة، فهي الوحدة الاجتماعية والسياسية، ويعتمد في تلاحمه على العصبية القبلية، فهي التي تشد أبناءها إلى بعضهم، ولما كانت مكة تخضع لقبيلة واحدة هي قريش بفروعها الأربعة عشر، فقد بدت هذه الفروع "العشائر" وحدات ذات كيان خاص، لكنها متحالفة داخل الكيان العام لقريش، وكان المتوقع أن ينتشر الإسلام في العشيرة التي ينتسب إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ثم في قريش التي ينتمي إليها، ولكن يلاحظ أن انتشار الإسلام لم يرتبط بالعصبية القبلية، ولا العشائرية، فلم يكن نصيبه من أفراد بني هاشم أعظم من بقية عشائر قريش، وإن كان بنو هاشم يتعاطفون معه أكثر من سواهم، لكن هذا التعاطف لم يدفعهم إلى الدخول في الإسلام،

بل مات كبيرهم وأقوى مناصريهم للرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبو طالب دون أن يدخل في الإسلام.

لقد انتشر الإسلام في المرحلة المكيَّة في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون لإحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من "تيم"، وعثمان بن عفان من "بني أمية"، والزبير بن العوام من "بني أسد"، ومصعب بن عمير من "بني عبد الدار"، وعلي بن أبي طالب من "بني هاشم"، وعمر بن الخطاب من "بني عدي"، وعبدالرحمن بن عوف من "بني زهرة"، وعثمان بن مظعون من "بني جماح"، بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش: فعبدالله بن مسعود من هذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبدالله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مذحج، وعمرو بن عبسة من سليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط، رضي الله عنهم أجمعين، لقد كان واضحًا منذ الوهلة الأولى أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش.

المسلمون الأوائل

كانت خديجة رضي الله عنها أول من عرف خبر النبوة ونزول الوحي، وصدَّقت الرسول صلى الله عليه وسلم وآزرته وثبتته وخففت عنه، فلا غرابة أن تكون أول من آمن، وقد أسلم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بعد خديجة في هذا الوقت المبكر، فقد كان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام معونة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب ورداً لجميله، فقد كان قليل المال كثير العيال – فكان أول الذكور إسلاماً، ولعل عمر علي رضي الله عنه حين المبعث عشر سنين.

وأما أبو بكر رضي الله عنه كان أول الرجال إسلاماً وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله)، وقد أسلم أهل بيت أبي بكر بإسلامه، قالت عائشة رضي الله عنها: (لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدين).

وذهب الزهري إلى أن أول الناس إسلاماً من الرجال هو زيد بن حارثة رضي الله عنه – مولى رسول الله –، وتدل رواية صحيحة على إسلام سعد بن أبي وقاص، وأنه بقي أسبوعاً ثالث مسلم ثم أسلم آخرون، وحلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصا ثم أوجروها.

والحادثة تدل على صلابة موقف المؤمنين الأوائل أمام الفتن المتنوعة التي تعرضوا لها، كما تدل على أنماط المواجهة التي تجمع بين التأثير العاطفي والضغط النفسي حيناً وبين استخدام القهر والقوة أحياناً أخرى.

ولقد أسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه في وقت مبكر، وأسلم طلحة بن عبيد الله، وخالد بن سعيد بن العاص، وأسلم الزبير بن العوام وهو صغير رضي الله عنهم أجمعين، وورد تعذيب عم الزبير له بالنار.

وأسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مبكراً حيث حكى خبر إسلامه قال: "كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وقد فرا من المشركين، فقال: يا غلام هل عندك لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، قالا: فهل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الضرع فدعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فحلب ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: علمني من هذا القول الطيب – يعني القرآن –، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنك غلام مُعلَّم)، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد".

ولا شك في تقدم إسلام خباب بن الأرت رضي الله عنه، وتقدم إسلام بلال الحبشي رضي الله عنه وكان رقيقاً ثم اشتراه أبو بكر وأعتقه، وقد ثبت أن عمار بن ياسر رضي الله عنه أسلم مبكراً، فقد قال عن نفسه: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر"، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "أول من

أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد".

وكان عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه يرى أنه رابع أربعة هم أول المسلمين، قال: "فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام"، وأما عن بواعث إسلامه فقد قال: "كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله رضي الله عنه مستخفياً جراءٌ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأنه يوحَّد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس!! ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه ... "، ويبدو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخبره بأسماء سائر من أسلم، إنما سمى أبا بكر وبلالاً فقط حرصاً على سلامة من أسلم من الأذى، وربما ذلك سبب تعبيره رضي الله عنه: "فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام" إنما هو بحسب ما بدا له، وإلا فقد كان عدد المسلمين أكثر من ذلك في المرحلة التي أظهرت فيها قريش جرأتها على الإسلام وأذاها للمسلمين، كما يدل قول الرسول: (ألا ترى حالي وحال الناس).

ومما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم: أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يرى نفسه رابع الإسلام أيضاً، وعلَّل بعض الرواة أن "كلاهما لا يدري متى أسلم الآخر"، مما يشير إلى أن مبدأ سرية الدعوة كان يراعى في بعض الحالات ما تقتضيه مصلحة الدعوة الناشئة.

إسلام الجن

بعث محمد صلى الله عليه وسلم لعالمي الإنس والجن، والجن كائنات مستترة عن أنظار البشر في الأصل، وإن كانت لهم قدرة على التجسد والظهور بأشكال مختلفة.

ويدل القرآن والسنة على أن نفراً من الجن، رأوا رسول الله بنخلة عامداً إلى عكاظ – وقد حيل بين الجن وبين استراق السمع من السماء، فكانوا يبحثون في أرجاء الأرض عن السبب – فاستمعوا إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فآمنوا به ورجعوا إلى قومهم، فقالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾، فأنزل الله على نبيه: ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجنِّ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً﴾، ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنَّ في هذه المرة، ولم يقرأ عليهم، وإنما أوحي إليه خبرهم.

وبعد هذه الحادثة دعا الجنُّ رسولَ الله مرة – وهو معسكر بأصحابه خارج مكة – فذهب معهم وقرأ عليهم القرآن، ثم أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم، وهؤلاء هم وفد جن نصيبين.

بدء الدعوة الجهرية

انقضت مرحلة الدعوة السريَّة بنزول الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بن يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا!! ثم قام، فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب﴾.

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكّة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى الإسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق الرسالة للعالمين، لأن واقع كثير من الآيات المكية كانت تنص على أن القرآن: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾.

وقد أسلم في مرحلة الدعوة العلنيَّة أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، وقد وردت قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه في صحيحي البخاري ومسلم، ويؤخذ منها أن أبا ذر رضي الله عنه كان منكراً لحال الجاهلية، يأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويبدو أنه كان متأثراً بالأحناف، ولما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم قدم إلى مكة وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه علي رضي الله عنه فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له علي رضي الله عنه: فإنه حق وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري). فقال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم، وقد وصف أنيس أخي أبي ذر الحالة في مكة عندما دخلها قبيل دخول أبي ذر، فقال لأخيه محذراً: "وكن على حذر من أهل مكة، فإنهم قد شنفوا له وتجهموا"، لقد عاد أبو ذر رضي الله عنه إلى غفار فأسلم نصفهم، وأسلم النصف الثاني بعد الهجرة النبوية.

كذلك يظهر من سياق قصة إسلام ضماد رضي الله عنه – من أزد شنوءة – أنه تم في بداية مرحلة الجهر بالدعوة، وبعد أن جاهر الرسول صلى الله عليه وسلم بتسفيه عقائد المشركين، فردوا عليه بالدعاية الكاذبة واصفين إياه بالجنون، فلما قدم ضماد مكة وسمع سفهاء مكة يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون، وكان ضماد يرقي من مس الجنون ذهب إلى الرسول وعرض عليه أن يرقاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد)، فقال ضماد: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال ضماد: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ثم أسلم وبايع عن نفسه وقومه رضي الله عنه، إن الكلمات النبوية تلمس شغاف قلوب البشر، وتزيل الحجب بينهم وبين حقيقة توحيد الألوهية، التي غابت عنهم آماداً طويلة، فتنقلهم الكلمات بصدقها ومباشرتها وملامستها للفطرة إلى عالم الإسلام.

وهناك قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للالتجاء إلى حصن دوس المنيع فأبى الرسول ذلك، ولا بد أن الدعوة هذه جرت بعد اشتداد المقاومة القرشية، وقد دعا الطفيل قومه إلى الإسلام، ولقي منهم صدوداً، حتى طلب الطفيل بن عمرو من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم، لكن الرسول دعا لهم بالهداية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم آنئذ بالمدينة المنورة.

أذى المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم

لا شك أن الاستجابة للأمر الإلهي بإعلان الدعوة اقتضى من المسلمين مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وبفساد الشرك، مما جعل المشركين يلحقون الأذى بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واتخذ هذا الأذى صوراً شتى من السب العلني والضرر المادي.

ويحكي شاهد عيان هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم -أبو جهل- : ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم -عقبة بن أبي معيط-، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة رضي الله عنها – وهي جويرية – فأقبلت تسعى، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، ثم تسمّى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، وقد تأثر المشركون لدعوة الرسول، وشقَّ عليهم الأمر، قال عبد الله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب – قليب بدر – ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأتبع أصحاب القليب لعنة).

ولما نزلت ﴿تَبَتْ يدا أبي لهب وتب﴾ أقبلت أم جميل بنت حرب، امرأة أبي لهب، وهي تنشد: مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فسألت أبا بكر إن كان النبي قد هجاها، فنفى ذلك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح لأن المشركين يسبون مذمّماً، يقول:

(ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد).

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش لما كذبوه واستعصوا عليه، فقال: (اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سِنَة، فحصّت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، وجعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع، فأتى أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنك تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، وقد أثبت القرآن هذا الحادث، فقال تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾، فلما دعا ربه لهم آملاً توبتهم عادوا إلى كفرهم، ونسوا ما حكاه القرآن على لسانهم قالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾.

وكان المشركون إذا سمعوا القرآن يجهر به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه مستخفياً يسبُّون القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فأمره الله تعالى أن يتوسط بالقراءة، بحيث يسمعه أتباعه دون المشركين، قال تعالى: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً)، إن حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلاة في المسجد الحرام أدى إلى الاحتكاك بالمشركين مراراً، ولعله حرص على إظهار شعائر الإسلام واحترام الكعبة، ولقاء الناس لأغراض الدعوة، ومن هنا حاول المشركون تفويت هذه الأغراض عليه بمضايقته وإيذائه دون التورع عن ذلك، حتى وهو يسجد لله في صلاته!! إن التهديد بالأذى والقتل على لسان زعماء المشركين لم يكن ينقطع في مرحلة الدعوة العلنية، بل كان يتصاعد ويشتد مع الأيام.

قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟، قالوا: نعم، فقال: واللات والعزى لإن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟!! فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً).

لقد خلّد القرآن هذا الحدّث، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى

الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن نهر أبا جهل وغلظ له القول، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

وقد سأل عروة بن الزبير عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين: أخبرني بأشدِّ ما صنع المشركون برسول الله صلى الله، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط عليه فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربّكم".

وكانت السخرية والاستهزاء من الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته أحد الأساليب التي اتبعها المشركون في الحرب الكلامية لصرف الناس عن الدعوة، فكان أبو جهل يقول ساخراً: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم!! فنزلت الآية: ﴿وما كان الله معذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه﴾.

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية، مما كان سبباً مباشراً للهجرة، قال ابن عباس: إن الملا من قريش اجتمعوا في الحِجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام واحد، فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحِجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: هذا هو، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: شاهت الوجوه. قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً، وهذه الحادثة قد تكررت ليلة الهجرة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما لاقاه من أذى قريش - قبل أتباعه – يقول: (لقد أُخِفتُ في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى

أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال).

اضطهاد قريش للمسلمين

لم يقتصر أذى قريش على الاتهام الباطل، والتكذيب السافر والسخرية المرَّة، والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تصاعد إلى ذروة العنف وخاصة في تعاملهم مع المستضعفين من المسلمين، فنكَّلت بهم لتفتنهم عن دينهم، ولتجعلهم عبرة لسواهم، ولتنفس عن غضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود – وهو شاهد عيان- : "أوَّل من أظهر إسلامه سبعة، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سميَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر رضي الله عنه فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد، ثم اشترى أبو بكر بلالاً فأعتقه"، رضي الله عنهم أجمعين.

وأعتق أبو بكر رضي الله عنه ممن كان يعذب في الله سبعة: عامر بن فهيرة، وبلال، ونذيرة، وأم عُبيس، والنهديَّة، وأختها، وجارية بني عمرو بن مؤمل رضي الله عنهم أجمعين، وذلك أنَّ أبا بكر مرّ بالنهديَّة ومولاتها تعذبها، تقول: والله لا أعتقك حتى تعتقك حياتك، فقال أبو بكر فبكم؟ قالت: بكذا وكذا، فقال: قد أخذتها وأعتقتها، ثم قال للنهدية: ردِّي عليها طحينها، قالت: دعني أطحنه لها!!

وذهب بصر زنيرة رضي الله عنها، وكانت ممن تعذب في الله عز وجل على الإسلام، فتأبى إلا الإسلام، فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كلا!؟ والله ما هو كذلك، فرد الله عليها بصرها.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يعتق المستضعفين من الرقيق المسلم، فقال له أبوه أبو قحافة: لو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك؟ فبيَّن له أبو بكر أنه يريد بذلك وجه الله

لا المنعة، فنزلت الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ إلى قوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾.

وقد نزلت الآية: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ في عمار رضي الله عنه لما ناله الأذى في سبيل الله، حتى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، يقول وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت : يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم –وهو محمرّ وجهه- فقال: (لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله).

وكان خبّاب يعمل حداداً، فعمل للعاص بن وائل سيفاً، فاجتمع له عنده مال، فذهب يتقاضاه، فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فردّ عليه خباب: حتى تموت ثم تبعث، فقال العاص ساخراً بأنه سيقضيه يوم القيامة من ماله!! فنزلت الآية: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾، مما يدل على ما لحق المستضعفين من ظلم وغصب لأموالهم فضلاً عن أذى أبدانهم، كما يدل على نقض قريش لحلف الفضول الذي عقدته قبل الإسلام بعقدين فقط!!

ولا شك أن المسلمين كانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب، وقد أتى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأصحابه إلى النبي بمكة فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزّة ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة! قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم – فلمّا حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفُّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وقد بقيت المأساة التي يعيشها المستضعفون حاضرة في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يدعو لمن بقي منهم بمكة بالنجاة من المشركين، وذلك بعد هجرته إلى المدينة.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر، وعدم مقارعة القوة بالقوة، والعدوان بالعدوان، حرصاً على حياتهم ونظراً لمستقبل الدعوة، وإمساك بزمام الدعوة الوليدة أن يئدها الشر وهي لا تزال غضّة طريّة، ولعل المشركين كانوا

يحرصون على مواجهة حاسمة مع الدعوة تُنهي أمرها، لكن الحكمة الإسلامية فوتت عليهم الفرصة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يربِّي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، ثم نزلت هذه الآيات في المرحلة المكية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخصص شطراً من الليل للصلاة، وقد خيّره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل أو يزيد عليه أو ينقص منه، فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه قريباً من عام حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم فخفف عنهم، فقال: (فأقرأوا ما تيسر من القرآن)، ولا شك أن امتحانهم في هجر الفراش ومقاومة النوم ومألوفات النفس لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيداً لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بد من إعداد روحي عال لهم، وقد اختارهم الله تعالى لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات الجسيمة في تعديل مسار البشرية، وإنقاذها من الانحرافات الخطيرة، وتسديدها نحو توحيد الله وطاعته.

لجوء قريش إلى المفاوضات

وقد لجأت قريش إلى مفاوضة أبي طالب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم ليكفه عن دعوته، قال عقيل بن أبي طالب: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومساجدنا فانهه عنا، فقال: يا عقيل، انطلق فائتني بمحمد، فانطلقت إليه، فاستخرجته من كبسي – بيت صغير – فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء يمشي فيه من شدة الحر الرحض، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومساجدهم فانته عن أذاهم، فحلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا، وقد اشتد الضغط على الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه بعد فشل هذه المفاوضات.

لجوء المشركين إلى المطالبة بالمعجزات لإثبات النبوة

أخذ عناد المشركين يقوى ولجاجتهم تشتد، وقد أرادوا إحراج الرسول وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته.

قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: بل باب التوبة والرحمة.

فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾، فكما أن معجزة هود لم تنفع في جلب ثمود إلى الإيمان، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم.

ولكن أمام إلحاح المشركين وعنادهم استجاب لهم – وقد سألوه آية – فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا جبل حراء بينهما، وقد شاهد الصحابي عبد الله بن مسعود رضي

الله عنه حادثة انشقاق القمر بمكة، وقد خلد القرآن هذه المعجزة، فقال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾، وهكذا عللوا رؤيتهم لانشقاق القمر بالسحر، وكانوا يتّهمون به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحققت فيهم سُنة السابقين مع المعجزات الحسيَّة كما أخبر القرآن.

ومن المجادلات التي أثارها المشركون سؤالهم عن الروح، قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت ﴿ويسألونك عن الروح * قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، قالوا: نحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً!! فنزلت: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً﴾.

وقد بيّن الصحابي عبد الله بن مسلم الحضرمي رضي الله عنه أنه كان لهم صبيان عبدان يصقلان السيوف، يقرآن التوراة، فمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن كتاباً لهما، وكانا يقرآن التوراة بلسانهما، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

وكذلك جادل المشركون في نزول القرآن منجماً -أي مجزأً- قائلين: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾، فبيَّن الله تعالى علَّة ذلك بقوله: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾.

وقد خاصم المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فنزلت الآية: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

ولقد منعت الأَنَفَة والكبر المشركين من الاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بحضور المستضعفين من المؤمنين، مثل عبد الله بن مسعود وبلال الحبشي رضي الله عنهم، فطلبوا من الرسول أن يطردهم، فنزلت: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾.

بل قد عاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عندما أعرض عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو يسأله عن شيء، ورسول الله منصرف إلى الكلام مع أبيِّ بن خلف، فنزلت: ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾، فإنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق

بسبب الحسب والنسب أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان وبيان وحدة الأصل وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ.

وقد جادل المشركون في عقيدة البعث فأكثروا فيها الجدل، فإن عقليتهم لم تتسع إلى تصور الحياة بعد الموت -كما حكى القرآن على لسانهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، حتى جاء العاص بن وائل بعظمٍ بالٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتساءل ساخراً: إن كان الله يبعث ذلك العظم البالي!!؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)، فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر السورة.

ولما نزلت الآية: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقعت مجادلة بين أبي بكر رضي الله عنه والمشركين حول الحرب بين الروم والفرس، وكان المسلمون يحبُّون أن ينتصر الروم لأنهم نصارى، وكانت عاطفة المشركين مع الفرس لأنهم مجوس وأهل أوثان، فراهن أبو بكر على انتصار الروم خلال خمس سنوات برهان، وذلك قبل تحريم الرهان في الإسلام، ولا بد أن فرحة المؤمنين بانتصار الروم كانت كبيرة لما فيها من تأييد القرآن وخذلان المشركين، فضلاً عن انتصار أهل الكتاب على المجوس، بل قد أسلم ناس كثير على إثر ذلك.

إن الجدل الساخن يوضح جانباً آخر من العلاقات بين المسلمين والمشركين، وقد تصاعد العنف مع الأيام، فأصبح المسلمون في حالة انفصام تام عن المجتمع المكي، تحيط بهم النظرات الغاضبة والألسن الشاتمة والأيدي المعتدية بأنواع العذاب، لذلك صار مقام المسلمين في مكة غاية في الصعوبة، ومن هنا جاء التفكير بمكان آمن يهاجرون إليه، وكان توجههم الأول نحو الحبشة.

الهجرة إلى الحبشة

من الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين، وكانت الهجرة الأولى في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينةً بنصف دينار، وقد صورت أم سلمة رضي الله عنها "زوج النبي صلى الله عليه وسلم" –وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى – الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة، قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه)، فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار أمِنا على ديننا ولم نخش منه ظلماً.

وممن خرج مهاجراً إلى الحبشة أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة – وهو سيد القارة – فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلادك، فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة الذي أعلن في قريش جواره له، فوافقت قريش على أن يعبد أبو بكر ربه في داره ولا يستعلن، فمضى وقت على ذلك ثم أخذ أبو بكر يجهر بقراءة القرآن في فناء داره فيجتمع نساء وأبناء المشركين يعجبون وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك قريشاً، وطلبوا من ابن الدغنة أن يكفه، فخيَّره ابن الدغنة بين الإسرار بعبادته أو أن يرد عليه جواره، فردَّ أبو بكر عليه جواره قائلاً: إني أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله، وهكذا بقي أبو بكر رضي الله عنه بمكة إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتمل أذى المشركين بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن له بالهجرة إلى الحبشة.

وفي أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة حدث أن صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام، فقرأ سورة النجم فسجد في موضع السجود وسجد كل من كان حاضراً إلا اثنين من المستكبرين، فشاع أن قريشاً قد أسلمت، ولعل سجود المشركين مع

الرسول صلى الله عليه وسلم لما اعتراهم من خوف ودهشة، وهم يستمعون إلى أخبار هلاك الأمم السالفة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

ثم بلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا، فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة، فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحاً، فرجعوا، وسار معهم جماعة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، وقيل: إن عدة نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة.

وأرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم.

فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: أيها الملك كنَّا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، لا نحل شيئاً ولا نحرمه. فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره.

فقال: هل معك شيء مما جاء به - وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

قال: هلمّ فاتل عليَّ ما جاء به.

فقرأ عليه صدرا من كهيعص.

فبكى والله النجاشي حتى أخضل ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا.

ولما أخفقت محاولة وفد قريش في استعادتهم، أثار عمرو بن العاص في اليوم اللّاحق موقف المسلمين من عيسى عليه السلام، فقال للنجاشي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً.

فأرسل النجاشي إليهم فسألهم، فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فقال النجاشي: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود.

وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار في خير دار.

إن مبادرة قريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية، وملكها عرف بالعدل، وهي قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطراً على قريش في المستقبل، ومما يبعث على العجب والإكبار موقف المهاجرين من بيانهم لعقيدتهم في عيسى عليه السلام بصراحة ووضوح، رغم مخالفتها للنصرانية السائدة في الحبشة، فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين خوفاً من تسليمهم.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأسماء بنت عميس رضي الله عنها – إحدى المهاجرات إلى الحبشة قدمت مع جعفر إلى المدينة – : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، ونحن كنا نؤذى ونخاف، ففصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بينهما بقوله: (ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان)، فعظم الفرح بين مهاجرة الحبشة.

وتوفي عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها وهي بالحبشة، زوجه إياها النجاشي ومهرها أربعة آلاف، ثم جهزها من عنده، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهازها كله من عند النجاشي، ولم يرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، وكانت مهور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم.

وقد هاجر معظم مهاجرة الحبشة إلى المدينة بعد استقرار الإسلام فيها، وتأخر جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى فتح خيبر سنة ٧هـ .

وقد انضم إلى المهاجرين في الحبشة أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، مع جمع من قومه بلغوا ثلاثة وخمسين رجلاً، وكانوا قد ركبوا سفينة يريدون الهجرة إلى المدينة حين بلغهم استقرار الوضع فيها لصالح الإسلام، فألقتهم الرياح إلى الحبشة فالتحقوا بالمسلمين ومكثوا معهم إلى أن عادوا جميعاً إلى المدينة، حين افتتح المسلمون خيبر.

إسلام عمر بن الخطاب

وكان عمر رجلاً قوياً مهيباً، وكان يؤذي المسلمين ويشتد عليهم، قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل – وهو ابن عم عمر، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنهم أجمعين: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم)، ليصده عن دينه.

ولكن شدته الظاهرة تكمن خلفها رحمة ورقة، فقد أخبرت أم عبد الله بنت أبي حثمة رضي الله عنها – وهي من مهاجرة الحبشة – قالت: (والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف عليّ – وهو على شركه وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا– فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟

فقلت: نعم والله، لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً.

فقال: صحبكم الله.

ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه – فيما أرى – خروجنا.

قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه؟

قلت: نعم.

قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب.

قالت: يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

ويبدو أن حدس المرأة كان أقوى، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن ينصر دينه به، فاستجاب الله دعاءه فأسلم عمر رضي الله عنه، فاعتز به الإسلام وصلى المسلمون بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر.

وقال أيضاً: لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت، حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي.

وقد ذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنه ما حدث من ردّ فعل قريش حين أسلم عمر رضي الله عنه، قال: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه، فقال له: يا جميل إني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر قد صبأ، فيقول عمر من خلفه: كذب، ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح -أي أعيا- فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنّا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش -العاص بن وائل السهمي- عليه حلة حبرة وقميص هوشي حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنَّما كانوا ثوبًا كشط عنه.

ولقد كان رد فعل قريش عنيفاً أمام حادثة إسلام عمر رضي الله عنه، حتى سال بهم الوادي يريدون قتله، لولا إجارة العاص له.

حصار المسلمين في شعب أبي طالب

وبعد فشل قريش في استعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، حيث أهاجها الأمر واشتد البلاء على المسلمين، وعزمت قريش أن تقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجمع بنو عبدالمطلب أمرهم على أن يُدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ويحموه فيه، فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم، وأجمع المشركون أمرهم على أن لا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في ذلك صحيفة، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتدَّ عليهم البلاء والجهد والجوع، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على ما حدث وأجمعوا على نقض الصحيفة، فوجدوا أن الأرضة أكلت الصحيفة ولم يبق فيها سوى كلمات، وهكذا انتهت المقاطعة.

ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش، فحدثت فيهم مجاعة حتى أكلوا الميتة والجلود، فجاء أبو سفيان يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم ويناشده الرحم، فقرأ الآية: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ إلى قوله ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾، وكان الرجل يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه فكشف عنهم العذاب، فعادوا إلى الكفر.

وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها

ما أن غادر بنو هاشم شِعب أبي طالب حتى أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بوفاة عمه أبي طالب – واسمه عبد مناف – وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث، وقد كان أبو طالب يحوط النبي صلى الله عليه وسلم ويغضب له وينصره، وكانت قريش تحترمه، وقد جاء زعماؤها حين حضرته الوفاة، وعرض عليه رسول الله الإسلام قائلاً: قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فحرَّضوا أبا طالب على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون إنَّما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾.

وعلى أي حال فإن موته أفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنداً كبيراً، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية لما يصيبهم من أضرار مادية ونفسية.

وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالب بأن يستغفر له الله ما لم ينه عن ذلك، فنهاه الله تعالى عن الاستغفار للمشركين ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أما خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقد توفيت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين في عام وفاة أبي طالب نفسه.

رحلته إلى الطائف

إن الرحلة إلى الطائف كانت على إثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، فسعى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، قالت عائشة رضي الله عنها، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليكم، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.

الإسراء والمعراج

بعد رحلة الطائف الأليمة، وقع حادث الإسراء والمعراج، فكان مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك قبل خروجه إلى المدينة بسنة، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا.

وقد وردت روايات أخرى صحيحة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في المسجد الحرام، أو في الحطيم أو الحجر بالذات من المسجد الحرام، حين شق صدره وغسل قلبه، ويمكن الجمع بأنه كان في بيته ثم جاء به جبريل إلى المسجد الحرام.

وبعد أن فرغ الملكان من شق صدره وغسله ولأمه أسري به إلى بيت المقدس على البراق، حيث صلى بالأنبياء فيه، ووصف هيئاتهم، ثم عرج به إلى السماء السابعة، ماراً ببقية السموات الست، ملتقياً بالأنبياء آدم ويوسف وإدريس وعيسى ويحيى بن زكريا وهارون وموسى وإبراهيم.

وقد سمع صريف أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة خمسين صلاة، ثم خففت إلى خمس صلوات.

وقد وصف سدرة المنتهى بأن نبقها مثل الجرار، وورقها مثل آذان الفيلة.

ووصف البيت المعمور في السماء السابعة وما يدخله من الملائكة.

ووصف نهر الكوثر في الجنة، وأن حافتيه قباب اللؤلؤ مجوف، وطينه مسك أذفر.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان قد رأى ربه، فقال: نورٌ أنى أراه!

ووصف ما رآه من أنهار الجنة وهي أربعة أنهار؛ اثنان باطنان في الجنة واثنان ظاهران، وهما النيل والفرات.

ووصف رؤيته لجبريل لما دنا منه وإن له ستمائة جناح، قال تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

ورأى في المعراج عذاب الذين يغتابون الناس، فإذا لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، وقد أتاه جبريل بإناء من خمرٍ، وإناء من لبنٍ، وإناء من عسلٍ، فأخذ اللبن، فقال جبريل: هي الفطرة.

وعندما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بما وقع معه من الإسراء والمعراج صدقه المؤمنون وكذبه المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم

بها)، لقد افتتن المشركون فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، ولكنهم اضطروا للاعتراف بصحة وصفه لمسجد بيت المقدس.

وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا، وأنّ أبا بكر رضي الله عنه قال للمشركين عندما أخبروه بخبر الإسراء والمعراج: "لئن قال ذلك لقد صدق"، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: "نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة"، فلذلك سمي أبو بكر بالصديق.

ويمكن القول: إن حادثة الإسراء كانت تطميناً ومواساةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتنة للكافرين الذين زاد عنادهم وكفرهم، ولبعض ضعفاء الايمان ممن زلزل الحادث إيمانهم، فكفروا ولم يعودوا حتى قتلوا.

ورأي جمهور العلماء أن الإسراء كان يقظة بروحه وجسده، مرة واحدة. وأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة.

الطواف على القبائل طلباً للنصرة

لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة تفوته، وخاصة في موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة.

قال ربيعة ابن عباد الدؤلي – وهو شاهد عيان –: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل، ووراءه رجل أحول تقِد وجنتاه، وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا دينكم ودين آبائكم. قلت: من هو؟ قالوا هذا أبو لهب".

ومما خاطب به الناس في ذي المجاز: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئاً، وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم، وأبو لهب يصيح: إنه صابئ كاذب، يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى.

ومما خاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس في الموقف: (هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟، فأتاه رجل من

همدان. فقال: من أنت؟ فقال الرجل: من همدان، قال: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم، ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل، قال: نعم، فانطلق).

وجاء وفد من الأنصار في رجب، في العام الحادي عشر من البعثة، حيث جرت بيعة العقبة الأولى، ثم في العام الثاني عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية، ثم كانت الهجرة إلى المدينة.

الاتصال بالأنصار ودعوتهم

يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري: "مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنَّة وفي المواسم بمنى، يقول: (من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟) حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منَّا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام".

وكانت الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة، فقد قدم سويد بن الصامت الأنصاري مكة حاجاً أو معتمراً، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به، فدعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما الذي معك؟) قال: مجلة لقمان – يعني حكمة لقمان –. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اعرضها عليَّ)، فعرضها عليه، فقال له: (إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى عليَّ، وهو هدى ونور)، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بعاث، وهو اليوم الذي جرت فيه واقعة بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس بعد قتل الكثير من الطرفين وفيهم من أكابرهم، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين.

سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عدداً، فقدم أبو الحيسر أنس بن رافع في وفد من بني عبد الأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال أحدهم وهو إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: "أي قوم! هذا والله خير مما جئتم له"، فانتهره أبو الحيسر فصمت، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، ورجعوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث، ثم مات إياس بن معاذ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أنه قد مات مسلماً، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المجلس.

وإذا كان الرجلان من الأوس اللذان استشعر الإسلام لم تذكر المصادر قيامهما بالدعوة في وسط قومهما، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند قبّة منى.

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أنتم؟)

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: (أمن موالي يهود؟)

قالوا: نعم قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟)

قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

فأسلموا وقاموا بالدعوة بالمدينة، فإن الأنصار كانوا يجاورون يهود وهم أهل كتاب، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار، فلا شك أنَّ أذهانهم كانت مهيَّئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم.

بيعة العقبة الأولى

وقد جرت بيعة العقبة الأولى في العام اللّاحق على لقاء وفد الخزرج، حيث حضر اثنا عشر رجلاً عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنّا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء – وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل: إن شاء غفر وإن شاء عذب". حيث لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال.

وعاد الأنصار إلى المدينة، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فقام بمهمته خير قيام وأنتشر على يديه الإسلام ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية.

بيعة العقبة الثانية

ولما انتشر الإسلام في المدينة، واطمأنَّ المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة يلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتدّ على مر الأيام، قدم وفد من الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: "فقلنا حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك، قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ما تمنعون منه أنفسكم ونساءهم وأبناءكم ولكم الجنة)، قال: فقمنا إليه فبايعناه".

وأخذ بيده أسعد من زرارة رضي الله عنه – وهو من أصغرهم – فقال: "رويداً أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة، فبيِّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله".

قالوا: "أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها"، قال: "فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة".

وقد نظر العباس في وجوه وفد الأنصار، ثم قال: "هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث"، مما يدل على غلبة الشباب على الوفد.

وهكذا بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطاعة والنصرة والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت رضي الله عنه: بيعة الحرب.

قال كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه – وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية –: "خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا ... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب – وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له – فلما جلس كان أول متكلم العباس ابن عبدالمطلب، فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: (أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون نساءكم وأبناءكم).

فأخذ البراء بن معرور رضي الله عنه بيده، ثم قال: "نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر"، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه متسائلاً: "يا رسول الله

إن بيننا وبين القوم حبالاً وانا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟".

فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: (بل الدم بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

ثم قال: (أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس).

وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نضلة رضي الله عنه: "والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)، فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم.

وهكذا مرَّت البيعة بسلام، وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بتلهف كبير.

الهجرة إلى المدينة المنورة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب). وفي الحديث: (إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين).

أوائل المهاجرين

ويتفق أهل السير أن أبا سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة، بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة.

وكذلك مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يُقرئان الناس القرآن، وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وعمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وقد سعت قريش بشتَّى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة.

لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتمّ الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة، قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها : "لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله ابن عمرو بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة.

قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي – أحد بني المغيرة – فرأى ما بي، فرحمني.

فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين والدها؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله، أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا.

قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحّى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله، ثم استأخر عني فقال : اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً

إلى مكة . فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة".

والخبر يكشف عن صورة من صور المروءة التي عرفها المجتمع القرشي قبل الإسلام تتمثل في موقف عثمان بن طلحة وتطوعه في مصاحبة المرأة، وإحسان معاملتها، مما يدل على سلامة الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة.

وثمة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما حدّث بها بنفسه قال: "اتعدتُّ - لما أردنا الهجرة إلى المدينة - أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب - موضع -، وقلنا أينا لا يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة التناضب، وحبس عنها هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش ابن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما علينا المدينة - ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة - فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، فرقَّ لها.

فقلت له: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم.

فقال: أبرّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما.

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى.

قال: فأناخ وأناخ ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبةً؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص.

فقال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوّب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم".

لقد نزل كثير من المهاجرين في قباء في مكان يسمى العصبة مقبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤمهم لكونه أكثرهم قرآناً.

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الحج بقية ذي الحجة، والمحرم وصفر ثم إن مشركي قريش أجتمعوا على قتله، وقد أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، وكان يتردد على بيت أبي بكر رضي الله عنه كل يوم صباحاً ومساءً، لا يكاد يدع ذلك، فلما أذن له بالهجرة جاءهم ظهراً على غير عادته وهو متقنع فأخبر

أبا بكر بذلك، واختياره وقت الظهر لأن الناس تأوي إلى بيوتها للقيلولة فراراً من الحر، وتقنعه يفيد شعوره بالخطر من حوله، فقد اعتزمت قريش قتله، ولابد أنها ستعمد إلى رصد تحركه، قال تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر رضي الله عنه: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن، فأذن له فدخل.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: أخرج من عندك.

فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.

قال: فإني قد أُذِن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بالثمن.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكمنّا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنه وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ فلا يسمعُ أمراً يكتادان

به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً، والخريت الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وحمل أبو بكر رضي الله عنه ثروته ليضعها تحت تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت أسماء ابنته أنها خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم.

لقد مكث الاثنان في الغار ثلاث ليال وقد تمكن المشركون من اقتفاء أثرهم إلى الغار حيث رأى الصديق رضي الله عنه أقدامهم فقال: (يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا).

قال: (اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما).

وإلى هذا اليقين التام والتوكل الكامل تشير الآية: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾.

وأخفقت قريش في العثور عليهما، فأعلنت عن مكافأة لمن يقتلهما أو يأسرهما، بينما مضى الاثنان في الطريق الى المدينة وهما يحسَّان برصد المشركين لهما.

قال أبو بكر: "أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلاً، وأسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - في ظلها ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت : نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام".

ثم حكى أبو بكر رضي الله عنه خبر مرور راع بهما، فطلب منه لبناً، وصادف استيقاظ الرسول صلى الله عليه وسلم، فشرب، ثم قال: (ألم يأن للرحيل)، قلت : "بلى، فارتحلنا بعدما زالت الشمس، وأتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلد من الأرض".

لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله مالنا شاة، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فما تلك الشاة؟) فأتى بها، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة عليها، ثم حلب عسّاً فسقاه، ثم شربوا.

فقال : أنت الذي يزعم قريش أنك صابيء؟

قال : (إنهم ليقولون).

قال : أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال : أتبعك.

قال : (لا حتى تسمع أنّا قد ظهرنا).

وهذا الخبر فيه معجزة حسِّية للرسول صلى الله عليه وسلم شاهدها أبو معبد فأسلم.

ولندع رواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف عن المعجزة النبوية، قال سراقة رضي الله عنه : " لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، قال : فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا.

فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا عليَّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه.

قال : فأومأت إليه بعيني أن اسكت.

ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالَّة لهم.

قال : لعلّه، ثم سكت.

قال : ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي، ثم أخرجت قداحي ، فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره لا يضره.

قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش، فآخذ المائة ناقة.

قال : فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه.

فقلت : ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره لا يضره.

قال : فأبيت إلا أن أتبعه.

قال : فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتدُّ بي، عثر بي، فسقطت عنه.

فقلت : ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره لا يضره.

قال : فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار.

قال : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني، وأنه ظاهر.

قال : فناديت القوم : فقلت: أنا سراقة بن جعشم: انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: قل له : (وما تبتغي منا؟)

فقال ذلك أبو بكر.

قلت : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك.

قال : (اكتب له يا أبا بكر)، فكتب لي كتاباً في عظم، أو في رقعة، ثم ألقاه إليَّ، فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت، فسكتّ فلم أذكر شيئاً مما كان".

حتى حكى خبر لقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة وإسلامه.

وقد ذكر سراقة رضي الله عنه في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، و أبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، وأن وصيته كانت: اخف عنا.

فصار آخر النهار مسلمة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كان جاهداً عليه أوله.

وفي رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس.

وقد احتاط الاثنان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

ولما خرج بها عبد الله بن أريقط دليلهما سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما أسفل أمج، ثم سلك بهما الخرّار ثم سلك بهما ثنية مرة، ثم سلك بهما القفاء، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج، ثم سلك بهما مرجح من ذي الغضون، ثم بطن ذي كثر، ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء من لجة تعهن، ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما، فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أسلم يقال له : أوس بن حجر على جمل له، وبعث معه غلاماً له يقال له: سعود بن هنيدة، ثم خرج بها دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبه، حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل.

وكان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا، وقدم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم، فخرجوا فاستقبلوه، وكانت فرحتهم به غامرة، فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه.

وقد نزل الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء.

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم، وقد كان عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار، فأحاطوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر رضي الله عنه وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة.

وقيل في المدينة : جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله.

قال الصحابي البراء بن عازب رضي الله عنه وهو شاهد عيان: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فتساءل: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب رضي الله عنه: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، فنزل في داره.

وتطلع زعماء الأنصار إلى استضافة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده، فكان يقول لهم: (دعوا الناقة فإنها مأمورة)، فبركت على باب أبي أيوب، وكان داره طابقين، قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: "لما نزل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السّفل وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له : يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال: (يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت).

قال : فلقد انكسر حبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء يؤذيه".

وكان مقامه صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب سبعة أشهر.

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مرّ الدهور وتتالي الأجيال، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن

يتلوه الناس: ﴿والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار ثناءً عظيماً فقال : (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) و (لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حيث أدركته الصلاة، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار، وقد اشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد، وهم يعملون في بنائه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وهم يرتجزون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة **** فانصر الأنصار والمهاجرة

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين، وقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ، فالمدينة بلدة زراعية، تغطي أراضيها بساتين النخيل، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر و بلال رضي الله عنهم.

وأخبرت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ، وصحِّحها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة)، وقال : (اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردّهم على أعقابهم).

لقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة، واستقروا في الأرض الجديدة مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي عليه الصلاة والسلام ومواساته بالنفس، حتى كان فتح مكة فأوقفت الهجرة لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين وخوف الفتنة من الكافرين، والحكم يدور مع علته ومقتضاه. ومن ثم قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر، فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام.

وعندما دوّن التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتخذت مناسبة الهجرة بداية التاريخ الإسلامي، إذ أن بيعة العقبة الثانية وقعت في ذي الحجة، وكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم، فناسب أن يجعل مبتدأ التاريخ الإسلامي.

خصائص المجتمع المدني وتنظيماته الأولى

المجتمع المدني قبل الهجرة

يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة، وهي واحة خصبة التربة كثيرة المياه تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع، أهمها حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة من الغرب وحرة واقم أكثر خصوبة وعمراناً، ويقع جبل أحد شمالها وجبل عير في جنوبها الغربي، وتقع فيها عدة وديان أشهرها وادي بطحان ومذينيب، وهي منحدرة من الجنوب إلى الشمال حيث تلتقي عند مجمع الأسيال من رومة.

اليهود

أقوى الأقوال في بداية نزوحهم كان من الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، ثم اشتدت هجرة اليهود إلى الحجاز بعد فشل التمرد اليهودي ضد الرومان، وقد وصل هؤلاء اليهود المهاجرين إلى يثرب بعد فشل ثورة أخرى قاموا بها بين عامي ١٣٢ و ١٣٥م.

وعدد اليهود المقاتلين – وهم عادة الرجال البالغون- من كل قبيلة سبعمائة من بني قينقاع ومثلهم تقريباً من بني النضير وما بين السبعمائة والتسعمائة من بني قريضة، هذا سوى بقية بطون يهود الأخرى الأقل أهميَّة والتي تسكن في أماكن متناثرة من يثرب.

وترك اليهود بعض طوابعهم على المجتمع المدني كما أنهم تأثروا بالقبائل العربية التي تحيط بيثرب من كل مكان، من ذلك أنهم نقلوا من الشام فكرة بناء الآطام – الحصون – وحملوا خبراتهم الزراعية والصناعية.

العرب

وقد سكن الأوس والخزرج يثرب، وينتمي الأوس والخزرج إلى قبيلة الأزد اليمانية الكبيرة التي خرجت من اليمن إلى الشمال في فترات مختلفة ربما القرن الثاني أو الثالث الميلادي، فسكن الأوس منطقة العوالي بجوار قريظة والنضير، وسكن الخزرج سافلة المدينة

حيث جاوروا بني قينقاع، وكانت ديار الأوس أخصب من ديار الخزرج مما كان له أثر في المنافسة والصراع بين الطرفين.

وقد حاول اليهود تفتيت وحدة العرب من أوس وخزرج وإثارة الشقاق بينهم فأفلحوا في إذكاء العداوة وقيام الحروب بين الجانبين، وآخر ذلك يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات حيث هزم الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل لتفوق قواتهم عليهم حتى لجأت الأوس محالفة يهود النضير وقريظة فغلبتهم في بعاث، لكنهم فطنوا إلى خطورة الإجهاز عليهم وأن ذلك يمكِّن اليهود من سيطرتهم على يثرب، لذلك سعوا إلى المصالحة معهم، بل الجانبين اتفقا على ترشيح رجل من الخزرج هو عبدالله بن أبي سلول، الذي وقف مع أهله على الحياد في بعاث ليكون ملكاً على يثرب، مما يدل على تمكُّن العرب من المحافظة على قوتهم وتفوقهم على يهود بعد يوم بعاث.

ولا شك أن وقائع أيام العرب بين الأوس والخزرج ولدت شعوراً بالمرارة عند الطرفين ورغبة قوية في العيش بهدوء وسلام، وقد عبرت عائشة رضي الله عنها عن أثر الحروب والمنازعات في إقبال أهل المدينة على الإسلام بقولها: (كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدَّم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الإسلام).

أثر الإسلام في المجتمع المدني

إن النقلة التي أحدثها الإسلام عميقة وشاملة، ففي عالم العقيدة يمثل طفرة من عبادة الأشياء المحسوسة كالأصنام والأوثان والكواكب إلى عبادة الواحد الذي ﴿ليس كمثله شيء﴾ والذي ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، فيتمكن من فهم التوحيد والتنزيه لله رب العالمين، وفي سلوك الإنسان اليومي أحدث الإسلام تغييراً جذرياً، فلم يعد العربي كما كان متفلتاً من ضوابط القانون في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية، بل صار منضبطاً بضوابط الشريعة في جزئيات حياته، من أخلاق وعادات ونوم واستيقاظ وطعام وشراب وزواج وطلاق وبيع وشراء.

ولم يكن العربي ليخضع لدولة وإنما كانت الوحدة السياسية والاجتماعية هي القبيلة، وكانت الدويلات التي نشأت في أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية وتنازع وصراع وتفكك في سائر شبه

الجزيرة، فلما جاء الإسلام أرسى مفهوم الدولة، وربط سائر القبائل والأفراد بها، فكانت هذه نقلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية السياسي.

الهجرة وأثرها في التكوين الاجتماعي لسكان المدينة

والهجرة حدث عظيم فقد كانت دليلاً على الإخلاص والتفاني في سبيل العقيدة، فقد فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله، ولما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومي رضي الله عنه بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة، ترك لهم أمواله وهاجر بنفسه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ربحَ صُهَيْبٌ ربحَ صُهَيْبٌ).

وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد أُريت دار هجرتكم، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين)، وتتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان فضلها وعظيم أجرها حتى وعد الله تعالى المهاجرين بمنعهم وتمكينهم من مراغمة أعداءهم والتوسعة عليهم في أرزاقهم، قال تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾، وقال تعالى: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنَّهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين﴾.

وقد تأخر بعض المسلمين بمكة عن الهجرة تحت ضغوط أزواجهم وأولادهم، فلما هاجروا من بعد ورأوا الذين سبقوهم من المهاجرين قد تفقهوا في الدين همُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، وكان ذلك سبباً في نزول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكانت الهجرة فرضاً في أول الإسلام حتى إذا كانت غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة وتبينت قدرة الدولة الإسلامية على الدفاع عن نفسها وحماية كيانها أمام قوى الأحزاب مجتمعين لم تعد بحاجة إلى مهاجرين جدد، فقد تغيرت خطة الدولة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم، وعبَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا).

وكذلك ضاقت المدينة بسكانها المتزايدين وما يحتاجونه من القوت والمسكن فطلب الرسول الكريم من بعض المهاجرين بعد الخندق العودة إلى ديارهم قائلاً: (هجرتكم في رحالكم)، إذ لم تعد ثمَّة حاجة لإقامتهم في المدينة بل صار بقاؤهم في قبائلهم أجدى لقيامهم

بالدعوة إلى الإسلام خارج المدينة وتوسيع انتشار الإسلام، ولكن ذلك لم يعتبر وقفاً للهجرة، بل إن إعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا). وبهذا سقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو، لكن الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر ولم يأمن الفتنة على دينه مع قدرته على الخروج منها.

وولَّد تدفق المهاجرين إلى المدينة مشاكل اقتصادية واجتماعية كان لا بد من مواجهتها بقرار حاسم، فكان أن شُرِّع نظام المؤاخاة.

المؤاخاة في المدينة

اعتبر الإسلام المؤمنين كلهم أخوة فقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾، وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم، والتناصر في الحق بينهم، لكن المؤاخاة التي شرعت وترتَّبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة.

وقد واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوعة اقتصادية واجتماعية وصحية، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم في المجتمع الجديد بسهولة، إضافة إلى اختلاف مناخ مكة عن المدينة وإصابة المهاجرين بالحمى، فكان وضع المهاجرين بحاجة إلى علاج سريع، ولم يبخل الأنصار بشيء من العون بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في كتاب الله العزيز: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، وقد بلغ كرم الأنصار حداً عالياً عندما اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين لأن النخل مصدر معيشة الكثير منهم، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين، كما وهبت الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل فضل في خططها، وقالوا له: إن شئت فخذ منَّا منازلنا، فقال لهم خيراً وابتنى لأصحابه في أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكاً لأحد.

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة في نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بكرم الأنصار، حتى قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في

قليل ولا أحسن بذلاً، لقد كفونا المئونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: (لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم).

تشريع نظام المؤاخاة

وقعت المؤاخاة في السنة الأولى الهجرية، وكان إعلان هذا التشريع في دار أنس بن مالك، ووقعت المؤاخاة بين طرفين هما المهاجرون والأنصار، فآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين كل مهاجري وأنصاري اثنين اثنين، وشملت المؤاخاة تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار.

وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست محددة بأمور معينة بل مطلقة لتعني كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عوناً مادياً أو رعاية ونصيحة وتزاوراً ومحبة، كما ترتب على المؤاخاة أن يتوارث المتآخين دون ذرية أرحامهم، مما يرقي بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم.

ومن النماذج الفريدة لهذه المؤاخاة ما حدث بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبدالرحمن بن عوف المهاجر، حيث قال له سعد رضي الله عنهما: إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك فأنا أطلقها فإذا حلت فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق، فلم يرجع حتى رجع بسمن وأقط قد أفضله، ورأى رسول الله صلى الله وسلم على عبدالرحمن بن عوف صفرة فقال: (مهيم؟)، فقلت: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال أولم ولو بشاة.

ولا شك أن المرء يقف مبهوراً أمام هذه الصور الرائعة من الأخوة المتينة والإيثار المتبادل، الذي لا نشهد له مثيلاً في تواريخ الأمم الأخرى، وكذلك موقف عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه في أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه، فقد تمكن – وهو التاجر الماهر – من شق طريقه في الحياة الجديدة وبعد مدَّة يسيرة تمكن من الزواج ودفع المهر نواة من ذهب، ثم بورك له في عمله ونمت ثروته ليصبح من كبار أغنياء المسلمين، فقد أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التي تعطي ولا تأخذ.

إلغاء التوارث بين المتآخين

لقد كان التوارث بين المتآخين لمعالجة ظروف استثنائية مرَّت بها الدولة الناشئة، فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم: ﴿.. وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .. ﴾، وذكر ابن عباس أن ما ألغي من نظام المؤاخاة هو الإرث أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، قال النووي: وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فباقٍ لم ينسخ.

استمرار المؤاخاة دون توارث

واستمر النبي صلى الله عليه وسلم يؤاخي بين أصحابه مؤاخاة مواساة وتعاون وتناصح دون أن يترتب على ذلك حق التوارث بين المتآخين، فقد آخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهم، مع أن سلمان أسلم بين أحد والخندق، وكذلك مؤاخاة جعفر بن أبي طالب لمعاذ بن جبل رضي الله عنهما، رغم أن جعفراً قدم في فتح خيبر أول سنة ٧ هـ.

إن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة، والارتفاق والنصيحة ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤخاة العامة بين المؤمنين.

آصرة العقيدة هي أساس الارتباط

إن الروابط التي تجمع بين الناس مختلفة، وهم يجتمعون بشكل قبائل وشعوب وأوطان وقوميات، وتعتبر آصرة القربى أو الدم من أقدم الروابط التي كونت المجتمعات البشرية، وقد جعل الإسلام رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم وإن أقرَّ بعض الأواصر الأخرى إذا انضوت تحت هذا الأصل مثل الأرحام التي حث الإسلام على وصلها،

ورتَّب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والإرث، ومثل صلة الجوار وما يترتب عليها من حقوق الجار، ومثل الصلة بين أفراد العشيرة وما يترتب عليها من تضامن في الديات، فأساس الارتباط في الإسلام هو العقيدة.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فيما قصه عن نوح عليه السلام وابنه: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

وقد حذَّر الله تعالى المؤمنين وتوعدَّهم إن هم غلَّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة، قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

الحب أساس بنية المجتمع المدني

وقد أقام الإسلام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل، كما في الحديث الشريف: (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتواصلهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، فالتوادّ والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع كبيرة وصغيرهم غنيّهم وفقيرهم حاكمهم ومحكومهم.

وقد تكفلت تعاليم الإسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع، ففي الحديث النبوي: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه)، وحديث: (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)، والحديث: (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه).

وقد تنقطع العلاقة بين المسلم وأخيه ساعة غضب، لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليال: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام).

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة (تهادوا تحابوا)، فقد كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد،

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، قام أبو طلحة رضي الله عنه فقال: "يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين)، فقال أبوطلحة: أفعل يا رسول الله فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه".

وقد ثبت في التاريخ أن عثمان رضي الله عنه تصدق بقافلة ضخمة – ألف بعيرتحمل البر والزيت والزبيب - على فقراء المسلمين عندما حلَّت الضائقة الاقتصادية بالمدينة المنورة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد عرض عليه التجار خمسة أضعاف ثمنها ربحاً، فقال أعطيت أكثر من ذلك، فقالوا من الذي أعطاك وما سبقنا إليك أحد، ونحن تجار المدينة؟ قال: إن الله أعطاني عشرة أمثالها ثم قسمها بين الفقراء المسلمين.

الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد

فالعقيدة الإسلامية منعت ظهور الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي، وآخت بين الأغنياء والفقراء ووحدت الصف الداخلي.

أهل الصفة

أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فراراً بدينهم من طغيان المشركين، وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم به فظلل أو سقف وأطلق اسم الصفة أو الظلة، ولم يكن لها ما يستر جوانبها.

ولا يعرف سعة الصفة، ولكن يبدو أنها كانت تتسع لعدد كبير حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدمها في وليمة حضرها ثلاثمائة شخص، وإن كان بعضهم قد جلس في حجرة من حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم الملاصقة للمسجد.

سكان الصفة

أول من نزل الصفة المهاجرون، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وطاعتها، وكان الرجل إذا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة.

وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصفة حباً لحياة الزهد والفقر رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم في المدينة، ومنهم كعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة) وحارثة بن النعمان الأنصاري وغيرهم.

وكان عدد المقيمين منهم في الظروف العادية في حدود السبعين رجلاً، وقد يزيد عددهم كثيراً، حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة.

انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة والجهاد

ينقطع أهل الصفة للعلم، ويعتكفون في المسجد للعبادة ويألفون الفقر والزهد، فكانوا في خلوتهم يصلُّون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى، ويتعلَّم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت رضي الله عنه لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث مثل أبي هريرة رضي الله عنه، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي اهتم بأحاديث الفتن، وكان منهم المجاهدون والشهداء ببدر مثل صفوان بن بيضاء رضي الله عنه، ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل رضي الله

عنه، ومنهم من شهد الحديبية، ومنهم من استشهد بخيبر مثل ثقف بن عمرو رضي الله عنه،ومنهم من استشهد بتبوك مثل عبدالله ذو البجادين رضي الله عنه، ومنهم من استشهد باليمامة مثل سالم مولى أبي حنيفة وزيد بن الخطاب رضي الله عنهم، هكذا كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار.

ولم يكن لأهل الصفة من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم ستراً كاملاً، فليست عندهم أردية، وما لأحد منهم ثوب تامّ، فكانوا يربطون في أعناقهم الأكسية أو البرد، أو يأتزرون بالأزر، أو الكساء، فكانوا يخجلون من الظهور بملابسهم أحياناً لأنها لا تسترهم ستراً كاملاً، وسرعان ما كانت تتسخ ملابسهم فجوانب الصفة مكشوفة للهواء والتراب.

وكان جلّ طعامهم التمر، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجري لكل رجلين منهم مداً من تمر في كل يوم، وقد اشتكوا من أكل التمر، وقالوا أنه أحرق بطونهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يوفِّر لهم طعاماً غيره فصبَّرهم وواساهم، وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته، لكنه لم يتمكن من تقديم الطعام الجيد لهم، فلم يكن يوسِّع على نفسه وأهله بالنفقه، ففي بعض المرات سقاهم لبناً ومرة أطعمهم جشيشة (صحين ولحم أو تمر مطبوخ)، ومرة حيسة (طعام من التمر والدقيق والسمن) ، وأخرى شعير محمص، ومرة الثريد، وكان عليه الصلاة والسلام يعتذر إليهم إذا لم يكن الطعام جيداً، فقد قدم لهم مرة صحفة فيها صنيع من شعير، وقال: (والذي نفس محمد بيده، ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئاً ترونه).

وكانوا يتناولون طعاماً أجود عندما يضيفهم أحد أغنياء الصحابة في داره وكثيراً ما كانوا يفعلون، ولكنهم في كثير من الأحيان ما كانوا يحصلون على ما يمسك رمقهم، فأثر ذلك فيهم فكانوا يخرون في الصلاة لما بهم من الجوع، حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يصرع بين المنبر وحجرة عائشة رضي الله عنها لما به من الجوع.

رعاية النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة لأهل الصفة

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكّرهم ويقص عليهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته وذكر الله والتطلع إلى الآخرة، وكانت إذا أتته صدقه بعث بها إليهم، ولما جاءه صلى الله عليه وسلم مرة سبي فسألته ابنته فاطمة رضي الله عنها خادماً لأنها تعبت من كثرة أعمالها وكلَّت، فأجابها عليه الصلاة والسلام (أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوي؟)، فأوضح لها أنه سيبيع السبي وينفقه على أهل الصفة.

وكان يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء ليتعشوا عندهم، ويقول: (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث وإن أربع فخامس أو سادس).

وقد استثارت حالة أهل الصفة سبعين من الأنصار يقال لهم الفقراء – وهم الذين استشهدوا يوم بئر معونة – فكانوا يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء، وقد اقترح محمد بن مسلمة الأنصاري وآخرون من الأنصار رضي الله عنهم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج كل واحد منهم قنواً – العذق بما فيه من الرطب- من بستانه حين ينضج التمر لأهل الصفة والفقراء فوافق على ذلك، ووُضِعَ في المسجد حبلاً بين ساريتين فأخذ الناس يعلقون الأقناء على الحبل، فربما اجتمعت عشرين قنواً وأكثر، وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقوم على حراسة الأقناء، وأنكر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل علق قنوا فيه حشف وأراد أن يكون التصدق بأطيب من ذلك، واستمرت عادة تعليق الأقناء في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة على الأقل إلى القرن الثاني الهجري.

رحم الله القوامين الصوامين المجاهدين الزاهدين أهل الصفة، وصدق الله العظيم: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فأنّى هذا النموذج مما يحدثه الفقراء المدقعون في المجتمعات الجاهلية من تكوين العصابات التي تتولى أعمال السرقة والقتل وأنواع العدوان الذي يفقد المجتمعات الاستقرار والإحساس بالأمن، إلا أنه الفرق بين تربية محمد صلى الله عليه وسلم والتربية الجاهلية، والفرق بين نظام الله والنظم البشرية.

اعلان معاهدة المدينة (الدستور)

لقد نظَّم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً، واستهدف الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد كتبت وثيقة موادعة اليهود أول قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قبل موقعة بدر الكبرى، وأما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فكتبت بعد بدر.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة وادع يهود كلها وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه، فلما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل ببدر من مشركي قريش وقدم المدينة غانماً موفوراً بغت بني قينقاع وأظهروا له الحسد والبغي، وأظهروا نقض العهد، فكانت سبب غزوة بني قينقاع.

أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فقد كتبت بعد وثيقة موادعة اليهود في السنة الثانية من الهجرة، وكانت في جفن سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذي الفقار ونقل منها: (العقل على المؤمنين ولا يترك مفرح في الإسلام ولا يقتل مسلم بكافر) .. (ويفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين الناس) .. (وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى عليهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم) .. (والمدينة حرام ما بين عائر إلى كذا فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل)، كما ذكر في الصحيفة أيضاً الجراحات وأسنان الإبل وألا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده، والعقل وفكاك الأسير، وكتب أن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة ما بين حرَّتيها وحماها كله لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشار بها ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره، ولا يحمل فيها السلاح لقتال.

كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

نصُّ الوثيقة بين المهاجرين والأنصار (البنود من ١ إلى ٢٣)، ووثيقة الموادعة مع اليهود (البنود من ٢٤ إلى ٤٧):

١. هذا كتابٌ من محمَّد النَّبيّ «رسول الله» بين المؤمنين، والمسلمين من قريشٍ، «وأهل يثرب»، وَمَنْ تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.
٢. إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.
٣. المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٤. وبنو عَوْف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٥. وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٦. وبنو ساعدة على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٧. وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٨. وبنو النَّجار على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٩. وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
١٠. وبنو النَّبيت على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
١١. وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢. وإِنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم - أي المثقل بالدين وكثرة العيال - أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْل، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

١٣. وإِنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيسةَ ظُلْمٍ، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وإِنَّ أيديهم عليه جميعًا، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

١٤. ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمنًا في كافرٍ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

١٥. وإِنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أدناهم، وإِنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

١٦. وإِنَّه مَنْ تبعنا من يهود، فإِنَّ له النَّصرَ، والأُسوة غير مظلومين، ولا متناصرٍ عليهم.

١٧. وإِنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ، وعدلٍ بينهم.

١٨. وإِنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضًا.

١٩. وإِنَّ المؤمنين يُبِئ – أي يمنع ويكف - بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠. وإِنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً، وأقومه، وإِنَّه لا يجير مشركٌ مالًا لقريشٍ، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

٢١. وإِنَّه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بيِّنةٍ؛ فإِنَّه قَوَدٌ به، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ "العَقْل"، وإِنَّ المؤمنين عليه كافَّةً، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٢. وإِنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثًا، أو يُؤْوِيه، وإِنَّ مَنْ نصره، أو آواه، فإِنَّ عليه لعنةَ الله، وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ، ولا عدلٌ.

٢٣. وإِنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإِنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

٢٤. وإِنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥. وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا ظلم نفسه، وأَثِمَ، فإِنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

٢٦. وإِنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٧. وإِنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٨. وإِنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٩. وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.
٣٠. وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.
٣١. وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، إلا من ظَلَمَ، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه، وأهلَ بيته.
٣٢. وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.
٣٣. وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، وإنَّ البر دون الإثم.
٣٤. وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.
٣٥. وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم -بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته، وأهل بيته-.
٣٦. وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد صلى الله عليه وسلم.
٣٧. وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ بينهم النُّصح، والنَّصيحة، والبرُّ دون الإثم.
٣٨. وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه، وإنَّ النَّصر للمظلوم.
٣٩. وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
٤٠. وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.
٤١. وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ، ولا اثم.
٤٢. وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.
٤٣. وإنَّه ماكان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله – عزَّ وجلَّ – وإلى محمَّدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.
٤٤. وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نصرها، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.
٤٥. وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه، ويلبسونه، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.
٤٦. وإنَّ يهود الأوس – مواليهم، وأنفسهم – على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.
٤٧. وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ، أو اثمٍ، وإنَّه مَنْ خرج امنٌ، ومن قعد امنٌ بالمدينة، إلا من ظَلم، وَأَثِمَ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ، واتقى، ومحمَّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

وقد تناولت البنود من رقم ٢٥ إلى ٣٥ تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وقد بيَّن ابن عباس رضي الله عنه سبب وجود رجال من الأوس والخزرج ضمن القبائل اليهودية فقال: "كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاه، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده".

وقد منع البند رقم ٤٣ اليهود من إجارة قريش أو نصرها وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستهدف التعرض لتجارة قريش التي تمر غربي المدينة، وكذلك فإن اليهود اعترفوا بموجب البند ٤٢ بوجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سائر سكان المدينة بما فيهم اليهود، لكن اليهود لم يلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أو إذا شاءوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد خيَّر القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بين قبول الحكم فيهم أو ردّهم: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾.

وقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم يميّز أتباعه عمن سواهم في أمور كثيرة ويوضح لهم أنه يقصد بذلك مخالفة اليهود، من ذلك أن اليهود لا يصلّون بالخف فأذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يصلّوا بالخف، واليهود لا تصبغ الشيب فصبغ المسلمون شيب رأسهم بالحناء والكتم، واليهود تصوم عاشوراء والنبي صلى الله عليه وسلم يصومه أيضاً ثم اعتزم أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه مخالفةً لهم، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: (من تشبَّه بقوم فهو منهم).

كما أكدت الوثيقة على المسئولية الجماعية، واعتبرت سائر المؤمنين مسئولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة، إن أهمية ذلك كبيرة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشكل قوة منظمة كالشرطة لتعقب الجناة ومعاقبتهم.

والبند رقم ٢١ يمنع من بقي على الشرك من الأوس والخزرج من إجارة قريش وتجارتها أو الوقوف أمام تصدي المسلمين لها، ولا مانع من أن ينص في وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار على معاملة اليهود المحالفين للمسلمين بالمعروف والعدل وعدم التحريض عليهم وإيذائهم، ونص البند ٢٣ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرجع الوحيد في كل خلاف يقع بين المسلمين في المدينة.

نقض يهود المدينة للمعاهدات

لم يلتزم اليهود بالمعاهدة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم معهم بل سرعان ما نقضوها ولم يكتفوا بعدم الوفاء بالتزاماتهم التي حددتها بل وقفوا مواقف عدائية أيضاً، فكان ذلك سبب إجلائهم عن المدينة المنورة، وفيما يلي بيان لأحداث جلائهم وأسبابه الممهدة والمباشرة.

غزوة بني قينقاع

وقعت الغزوة بعد غزوة بدر الكبرى، وكانت في شوال من السنة الثانية من الهجرة، وتشير كتب السيرة إلى أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر، وقد بلغ بهم الأمر إلى حد المجاهرة بالعداء، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة المنورة.

الحصار

وقد ورد في تفاصيل خبر حصار بني قينقاع أنهم كانوا حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغة، فلما أظهروا صريح العداء والبغضاء وخاف النبي صلى الله عليه وسلم خيانتهم، استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، وعقد لواء أبيض حمله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، فاشتَّد عليهم الحصار ونزلوا على حكم الرسول، على أن له أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتِّفوا.

ثم كلَّمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول وألحّ في ذلك قائلاً: أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هم لك)، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة وتولّى أمر جلائهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري حيث تم تقسيمها بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد نزل في إجلاء بني قينقاع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، وقد نقل أهل التفسير أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾، نزل في موالاة عبد الله بن أبي ليهود بني قينقاع، وفي نفس الوقت أعلن عبادة بن الصامت رضي الله عنه براءته من حلفائه من يهود مظاهرة لله ولرسوله بقوله: "يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله".

والفرق واضح بين عبد الله بن أبي الذي أُشرِب قلبه بالنفاق وبين عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي صقلته التربية المحمدية، وخلَّصته من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الشخصية، فنظر إلى مصلحة العقيدة وقدَّمها على مصالحه الخاصة، فكان مثالاً للمؤمن الواعي.

مقتل كعب بن الأشرف

ووقع مقتل ابن الأشرف بعد غزوة بدر وقبل غزوة بني النضير في السنة الثالثة من الهجرة النبوية، وكعب بن الأشرف، عربي أبوه من طيء وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق من بني النضير الذين حالفهم الأب وتزوج منهم، وكان كعب شاعراً يناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين ببدر وساءه الأمر فزار مكة، فكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش، ويبكي قتلى المشركين ببدر، ثم رجع إلى المدينة، فشبب بنساء المسلمين فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله.

وفصَّل البخاري خبر مقتله، وخلاصته أن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه أبدى استعداده لتنفيذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، واستأذنه في أن يستخدم الخديعة، فأذن له لأن كعباً صار محارباً مهدور الدم، فمضى محمد بن مسلمة إلى كعب وطلب منه أن يقرضه تمراً ليدفعه للرسول مظهراً تذمره منه لما يكلفهم به، فأراد كعب رهينة من النساء أو الأبناء فاعتذر محمد بن مسلمة لما يلحقهم من عار ذلك، وعرض عليه أن يرهن عنده السلاح فوافق كعب، فجاءه محمد بن مسلمة ليلاً ومعه صحابي آخر وهو أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة ومعهما ثلاثة آخرون من الصحابة، فنادوه فنزل إليهم ومشى معهم

فاحتالوا لقتله متظاهرين بشم عطر شعره، فأجهزوا عليه بسيوفهم حتى أصيب أحدهم بسيوف أصحابه.

وقد اشتكت اليهود مقتله، فبيَّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما صدر منه من عداء وهجاء، وفزعت يهود وبقايا المشركين مما حدث وخافوا على أنفسهم، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كتابة معاهدة بينهم فكتبت صحيفة عامة، ويبدو أن كتابة الصحيفة جاء تأكيداً لما في المعاهدة التي كتبت قبل بدر بين المسلمين واليهود بعد أن أثار مقتل ابن الأشرف مخاوف يهود.

فبهجائه للنبي وهو رئيسهم وبإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين ورثاء قتلاهم وتحريضهم على المسلمين، يكون قد نقض العهد وصار محارباً مهدور الدم، ولم يؤاخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف، واكتفى بقتله جزاء غدره وجدَّد المعاهدة معهم، ولكن يبدو أن لمقتل كعب أثراً عميقاً في نفوسهم فقد مضوا يكيدون للإسلام رغم تجديدهم المعاهدة.

إجلاء بني النضير

وكانت غزوة بني النضير بعد غزوة بدر الكبرى، وقيل بعد أحد.

وقد رويت آثار في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأنها نزلت في شأن يهود بني النضير عندما همُّوا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فأنقذه الله بنعمة منه.

سبب غزوة بني النضير

تذكر المصادر سببين لهذه الغزوة يتمثلان بمحاولتين لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم: **الأولى :** محاولة بني النضير قتل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر الكبرى، بعد كتابة قريش إليهم وتهديدها لهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب بنو النضير لهم وعزموا على الغدر، وأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه، ووعدوا أن يخرجوا بمثلهم من أحبارهم، إلى موضع وسط ليستمعوا منه، فإن صدقوه آمنت يهود، فلما اقتربوا اقترح اليهود أن يجتمع النبي ومعه ثلاثة من أصحابه بثلاثة من أحبارهم فإن أقنعهم آمنت بنو النضير، وقد حمل الثلاثة خناجرهم، لكن امرأة منهم أفشت خبرهم لأخ لها مسلم، فأخبر النبي فرجع ولم يقابلهم، ثم حاصرهم بالكتائب وقاتلهم فنزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح فاحتَّملوا حتى أبواب بيوتهم.

أما المحاولة **الثانية** فتتلخص بأن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بني النضير ليستعين بهم على دفع دية رجلين معاهدين قتلهما خطأ عمرو بن أمية الضمري في أعقاب حادثة بئر معونة، فجلس النبي إلى جدار لبني النضير فهمُّوا بإلقاء حجر عليه وقتله فأخبره الوحي بذلك فانصرف عنهم مسرعاً إلى المدينة، ثم أمر بحصارهم فنزلوا على الصلح بعد حصار ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل.

وكلتا الروايتين تعزو حصار المسلمين لبني النضير إلى محاولتهم قتل الرسول صلى الله عليه وسلم غدراً، بالإضافة إلى الدسّ والتحريض وتقديم المعلومات لقريش، والمعروف أنهم حرَّضوا المشركين على قتال المسلمين، والأشعار التي أنشدها كعب ابن

الأشرف النضري في تحريض قريش على حرب المسلمين، فلعل سوء العلاقة بين المسلمين وبني النضير وأنها ختمت بمحاولة الغدر التي كانت سبباً مباشراً في حصارهم.

حصار بني النضير ومعاهدة إجلائهم

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصرهم بالكتائب وقال لهم: (إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه)، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب – وترك بني النضير – ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه فانصرف عنهم.

وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل إلا الحلقة، فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها. وقد ثبت بنص القرآن والحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال الحصار.

وتقرر معاهدة الجلاء حقن دماء اليهود، وإجلاءهم عن ديارهم، والسماح لهم بأخذ ما تحمله إبلهم من المتاع والأموال سوى السلاح فيتركونه للمسلمين.

وقد أُجلوا إلى الشام لكن بعض زعمائهم مثل حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وغيرهم ذهبوا إلى خيبر ومعظمهم ذهب إلى الشام، وقد أسلم من بني النضير إثنان فأحرزا أموالهما وهما يامين بن عمر بن كعب وأبو سعد بن وهب، أما أموال بني النضير ونخلهم فكانت للرسول خاصة بنص القرآن، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله، وقد قسَّم النبي أرضهم بين المهاجرين، وأعطى اثنين من الأنصار فقط هما سهل بن حنيف وأبو دجانة بن سماك بن خرشة لحاجتهما.

وقد أدى إجلاء بني النضير إلى كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير، وأظهرت رغبتها في المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب، فالمنافقون لم ينجزوا عدهم لنبي النضير بالنصر وتبين ليهود عدم جدوى الاعتماد عليهم.

وقوي كيان الإسلام بالتخلص من بني النضير والإفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على أراض وبيوت للأنصار.

تحريض بني النضير للمشركين

وقد استمر الحقد يعمل في نفوس يهود بني النضير مما دفعهم إلى تحريض المشركين من قريش والأحزاب على مهاجمة المدينة في غزوة الخندق.

غزوة بني قريظة

وقعت غزوة بني قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة، عقب غزوة الخندق التي كانت في شوال سنة خمس للهجرة.

سبب الغزوة

ويرجع سبب الغزوة إلى نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نقضهم للعهد بتحريض من حييّ بن أخطب النضري، وفي وقت حرج وخطير بالنسبة للمسلمين الذين كان يحاصرهم عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الزبير بن العوام لاستطلاع خبرهم، ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، لمعرفة صحة ما يشاع من غدر بني قريظة، وقد أكّد له هؤلاء صحة الخبر فاشتّد الأمر على المسلمين.

وقد أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتوجه إليهم، وقد أعلم أصحابه بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم أن: (لا يصليَّن أحد العصر إلا في بني قريظة) كما في رواية البخاري – أو الظهر – كما في رواية مسلم، وقد حان وقت العصر وبعضهم في الطريق فمنهم من صلى ومنهم من أخر، وأقرَّ النبي الطرفين فقد اجتهدوا في مراده من أمره.

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى بني قريظة واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وبعث علياً رضي الله عنه على المقدمة برايته.

وانفرد ابن سعد بذكر عدد جيش المسلمين وعدد خيلهم فذكر أنهم كانوا ثلاثة آلاف رجل معهم ستة وثلاثون فرساً، وكانت مدَّة حصاره صلى الله عليه وسلم لبني قريظة خمساً وعشرين ليلة.

نجاح الحصار ومصير بني قريظة

ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، وقد استشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه – وكان حليفاً لهم – فأشار إلى أن ذلك يعني ذبحهم، وقد ندم على مشورته هذه وربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد النبوي حتى قُبِلت توبته، أما بنو قريظة فقبلوا النزول على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق فقضى فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (قضيت بحكم الله)، وكان عدد مقاتلتهم الذين نفذوا فيهم الحكم أربعمائة، ونجا ثلاثة من بني قريظة بدخولهم في الإسلام فأحرزوا أنفسهم وأموالهم، وقد حبس أسراهم في دار بنت الحارث، ثم نفذ القتل في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها بشكل مجموعات، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، كانت قتلت صحابياً هو خلاد بن سويد رضي الله عنه برحى ألقتها عليه.

أما الغلمان غير البالغين فقط أطلق سراحهم – وبعد إنفاذ حكم القتل في مقاتلة بني قريظة، شُرع في تقسيم أموالهم وذراريهم بين المسلمين، وقد اصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت عمرو بن خناقة رضي الله عنها من بين السبي لنفسه.

فتح خيبر وبقية المعاقل اليهودية في الحجاز

خيبر واحة زراعية تقع شمال المدينة المنورة، وتبعد عنها بحوالي ١٦٥كم، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ م، وامتازت خيبر بخصوبة أرضها، ووفرت مياهها، فاشتهرت بكثرة نخيلها. هذا سوى ما تنتجه من الحبوب والفواكه، لذلك كانت توصف بأنها قرية الحجاز ريفاً ومنعةً ورجلاً، ونظراً لمكانتها الاقتصادية فقد سكنها العديد من التجار وأصحاب الحرف وكان فيها نشاط واسع للصيرفة.

وكان يسكنها قبل الفتح أخلاط من العرب واليهود، وزاد عدد اليهود فيها بعد إجلاء يهود المدينة، ولم يظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم، وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها.

وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرّها إلى الصراع والتصدِّي للانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم الناجح في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب، فلما ردَّ الله الأحزاب عن المدينة خائبين، اهتمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بمعالجة الموقف في خيبر التي صارت مصدر خطر كبير على المسلمين.

وقد ساق البخاري قصة قتل سلام بن أبي الحقيق مفصَّلة، حيث احتال عبد الله بن عتيك في الدخول إلى بيت داخل حصن سلام بن أبي الحقيق وبين حرسه ورجاله حتى قتله في مخدعه، مما يدل على رباطة جأشه، وعلو همّته وعظم استعداده للتضحية من أجل عقيدته.

ولكن القضاء على بعض الزعماء لا يكفي لإزالة الخطر عن المسلمين، وكانت معاهدة الحديبية التي وقعت سنة ست من الهجرة بين المسلمين وقريش، قد أتاحت الفرصة

أمام المسلمين ليتفرغوا لفتح خيبر، وقد ذهب كثير من المفسرين أن الله تعالى وعد المسلمين بفتح خيبر وحيازة غنائمها في سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية، وذلك بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

الطريق إلى خيبر

وقعت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة، ولما توجه المسلمون بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى خيبر كانوا يكبّرون ويهلّلون رافعين أصواتهم، فطلب منهم أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً : (إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم)، وهذه الصورة توضح الروح المهيمنة على الجيش الإسلامي ودوافعه الإيمانية القوية ومعنوياته القتالية العالية وهو يتوجه نحو قلاع وحصون ملئت رجالاً وسلاحاً ومؤونة ومتاعاً.

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة فسلك ثنية الوداع فزغابة فنقمى فالمستناخ فالوطة فعصر فالصهباء فالخرصة ثم سلك بين الشق والنطاة ثم المنزلة ثم الرجيع حيث انطلق منها لفتح خيبر. والملاحظ أن الرجيع تقع شمال شرق خيبر ويبدو أن النبي قصد من ذلك أن يفصل خيبر عن الشام وعن حلفائها من غطفان.

وصف فتح خيبر

وقد افتتح النبي صلى الله عليه وسلم منطقة النطاة أولاً، وسقط حصناها ناعم والصعب بيد المسلمين ثم منطقة الشق وسقط حصناها أبي والنزار، والنطاة والشق في الشمال الشرقي من خيبر، ثم فتح منطقة الكتيبة وأسقط حصنها المنيع القموص وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم افتتح منطقة الوطيح، ثم منطقة السلالم وأسقط حصنيها، ولعل هذا التسلسل في فتح مناطق خيبر معتمد.

وتدل الأحاديث الصحيحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم وصل خيبر قبل انبلاج الفجر وصلى الفجر قربها ثم هاجمها بعد أن بزغت الشمس، وقد فوجئ الفلاحون من يهود الذين خرجوا إلى أعمالهم ومعهم مواشيهم وفؤوسهم ومكاتلهم بوجود المسلمين،

فقالوا :محمد والخميس!! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

حصن ناعم

فلجأ اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون حصن ناعم، وسعت غطفان إلى نجدة يهود خيبر، ولكنهم لم يشتركوا في القتال فقد خافوا أن يهاجم المسلمون ديارهم، وحمل راية المسلمين في حصار "ناعم" أبو بكر رضي الله عنه لليومين الأولين، ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدّة وجهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني دافع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دعا علياً رضي الله عنه ودفع إليه اللواء فحمله رضي الله عنه في اليوم الثالث فتمّ الفتح على يديه)، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يدعو يهود خيبر إلى الإسلام وما يجب عليهم من حق الله، وقال له: (فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)، مما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان حريصاً على غنائم خيبر بل كان همّه نشر العقيدة وإزاحة العقبات من طريقها.

ولما سأله علي رضي الله عنه: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

وقد استشهد في حصار حصن ناعم محمود بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، وقد بارز عليٌ مرحباً هذا وقتله، وكان مرحب من أبطال يهود فأثّر مقتله في معنوياتهم.

وقد استغرق فتح حصن ناعم عشرة أيام، وتوجه المسلمون بعده إلى حصن "الصعب بن معاذ" في منطقة النطاة، وكان فيه خمسمائة مقاتل وفيه الطعام والمتاع وكان المسلمون في ضائقة من قلة الطعام، وقد حمل الراية في فتحه الحباب ابن المنذر رضي الله عنه وأبلى بلاءً حسناً، وقاوم اليهود مقاومة عنيفة واستغرق الفتح ثلاثة أيام، ثم فتح المسلمون حصن "قلعة الزبير" وهو آخر حصون النطاة، وقد اجتمع فيه الفارّون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود، وكان حصن قلعة الزبير منيعاً مرتفعاً، وقد قطع المسلمون مجرى الماء عنهم واضطروهم إلى النزول للقتال وأصابوا منهم عشرة وفتح الحصن بعد

حصار ثلاثة أيام، وانتقل المسلمون من الرجيع إلى المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة وهم أشدّ اليهود.

ولا شك أن موقف المسلمين قويَ كثيراً بعد هزيمة أهل النطاة، وحيازتهم أطعمتهم ومتاعهم، بالإضافة إلى ما أصاب بقية يهود خيبر من رعب لسقوط منطقة النطاة.

وقد توجه المسلمون لفتح منطقة "الشق" وهي تحتوي على عدّة حصون منها حصن "أبيّ" وحصن "النزار"، وقد بدأ المسلمون بفتح حصن أبيّ، وجرت مبارزات فردية أما الحصن فاصيب فيها مقاتلة يهود، ثم اقتحم المسلمون الحصن وحازوا ما فيه من طعام ومتاع، وتمكن بعض مقاتلة يهود من التحول إلى حصن نزار، وتحصَّنوا فيه وقاتلوا المسلمين بالنبل والحجارة ثم تهاوت مقاومتهم أمام حصار المسلمين حتى فتح الحصن، وفرَّ بقية أهل الشق من حصونهم إلى منطقة "الكتيبة" في الجنوب الغربي من خيبر، وتحصَّنوا في حصن "القموص" المنيع، وتحصن بعضهم من أهل حصني الوطيح والسلالم فحاصرهم المسلمون أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح دون أن يقع قتال، إذ إن حصن نزار كان آخر حصن جرى فيه قتال وانهارت بعده مقاومة اليهود فاقتصروا على التحصن في حصونهم وانتهى التحصن دائماً بطلب الصلح.

وقد ذكرت رواية صحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل أهل خيبر فغلب على النخل والأرض، وألجأهم إلى قصرهم، فصالحوه على أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء والبيضاء والحلقة، ولهم ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا يغيّبوا شيئاً فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب، وقد كان قتل قبل خيبر، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فيه حليهم.

قال :فقال لسعية -عم حيي بن أخطب- أين مسك حيي بن أخطب؟.

قال :أذهبته الحروب والنفقات، فوجدوا المسك.

فقتل ابني أبي الحقيق، وسبي نساءهم وذراريهم.

والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلح ونكثوا العهد فحاز أموالهم، أما أهل حصني الوطيح والسلالم فإنهم لما أيقنوا بعدم جدوى

المقاومة بعد سقوط النطاة والشق والقموص سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: "أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل".

وأبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا وكان اليهود قد بادروا بعض ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا :نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها، وهمُّه بإخراجهم دليل على أن خيبر كلها فتحت عنوة، لأن من صالح منهم صالح على حقن دمه وإجلائه منها.

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح وأن يسيرهم ويحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال فوافق على طلبهم، فكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي، ثم استسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود، وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى.

وبذلك انهارت سائر المعاقل اليهودية أمام المسلمين، وقد بلغ قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت نساؤهم وذراريهم، ووقعت في السبي صفية بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها، فاعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها.

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً أو خمسة عشر رجلاً، وهذا من خذلان الله تعالى ليهود، فإن قتلاهم وهم يدافعون في حصون منيعة أكثر بكثير من شهداء المسلمين المهاجمين في ساحات مكشوفة!! وقد صح أن امرأة يهودية أهدت النبي صلى الله عليه وسلم شاة مشوية قد سمَّتها، وأكثرت السمّ في الذراع عندما عرفت أنه يحبها، فلما أكل من الذراع أخبرته أنها مسمومة فلفظ اللقمة، واعترفت المرأة، فلم يعاقبها، وقد قتلها بعد ذلك عندما مات بشر بن معرور رضي الله عنه من أثر السم الذي ازدرده مع الطعام.

ومما أعان على فتح خيبر تفرغ المسلمين بعد صلح الحديبية لقتال يهود خيبر دون أن تنجدهم قريش، وتخاذل قبيلة غطفان حليفة يهود خيبر عن نجدتهم خوفاً على ديارهم من المسلمين، وقد أصابت الكآبة والغيظ قريشاً لما بلغها خبر انتصار المسلمين على يهود خيبر، وهو أمر ما كانت تتوقعه لما هو مشهور من حصانة قلاع اليهود وحصونهم في خيبر، وكثرة مقاتليهم وسلاحهم، وكذلك كان صدى فتح خيبر مدوّياً في أوساط القبائل العربية

الأخرى التي أدهشها الخبر وخذلها النصر، فكفكفت من عدائها، وجنحت إلى المسالمة والموادعة، ففتحت آفاق جديدة أمام انتشار الإسلام.

فأقام اليهود في خيبر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث من قبله رجلاً لتقدير الثمار وقبض حصَّة المسلمين، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مرة فقدَّر الثمار بعشرين ألف وسق من تمر– أو أربعين ألف حسب الروايات-، ثم خيَّرهم بين أخذها حسب تقديره أو تركها له وفق ذلك فقالوا متعجبين من عدالته : هذا الحق وبه تقوم السموات والأرض قد رضينا أن نأخذه بما قلت.

أثر فتح خيبر

ولا شك أن فتح خيبر عاد على المسلمين بالخير الكثير وعزز إمكانياتهم الاقتصادية بدخل سنوي دائم، حتى قالت عائشة رضي الله عنها معقبة على فتح خيبر: "الآن نشبع من التمر"، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : "ما شبعنا حتى فتحنا خيبر"، ولا شك أن هذه الأقوال كافية لتوضيح ما عاد به فتح خيبر من تعزيز لوضع المسلمين الاقتصادي.

ومع شدة حاجة المسلمين قبل خيبر فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفضِّل إسلام يهود خيبر على كل غنيمة كما يتضح من وصيته لعلي رضي الله عنه، كما قبل بعد الصلح - الذي وافق بموجبه اليهود على إجلائهم من خيبر - أن يبقيهم في خيبر بناء على طلبهم، وكل ذلك يدل على الروح السمحة والعدالة السامية، كما أن ذلك حقق للدولة الإسلامية مصالح عليا اقتصادية وعسكرية، حيث تمت المحافظة على طاقات المسلمين العسكرية ووجهوا إلى الجهاد الدائم من أجل توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، ولم يتحولوا إلى الفلاحة التي تحتاج إلى إدامة العمل في استصلاح الأرض ورعاية الزرع والنخل، مما يستنفذ طاقتهم، وكذلك تمت الإفادة من خبرة الفلاحين اليهود للحفاظ على مستوى الإنتاج الزراعي في خيبر، لأنهم يمتلكون خبرة الأرض وزراعتها، مما يوفر للمسلمين حصةً كبيرة يمكن الإفادة منها في تجهز الجيوش والقيام بالنفقات الأخرى التي تحتاجها الدولة.

توزيع غنائم خيبر

وقد قسَّم الرسول صلى الله عليه وسلم أرض خيبر إلى نصفين، نصف لما ينزل به من النوائب والوفود ونصف للمسلمين من أهل الحديبية، وبلغ عدد الأسهم كلها ستة

وثلاثين سهماً، منها ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً.

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة ووصلوا خيبر بعد الفتح من غنائم خيبر، وكانوا ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً بقيادة جعفر بن أبي طالب، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، كما أعطى أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضا الغانمين حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر، ولم يشتركوا في القتال.

نماذج من المجاهدين

وقد صحَّ أن أعرابياً شهد فتح خيبر، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أثناء المعركة أن يقسم له قسماً وكان غائباً، فلما حضر أعطوه ما قسم له فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأدخل الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (إن تصدق الله يصدقك)، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو فأُتِيَ به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي صلى الله عليه وسلم بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: (اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، وأنا عليه شهيد).

وهذه الرواية شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغزو والسلب والنهب في الجاهلية، فإذا به لا يقبل ثمناً لجهاده إلا الجنة، فكيف يبلغ الإيمان إذاً من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أيقال إنهم فتحوا ديار يهود طمعاً في أرض ومال؟ أيتهمون بأن التعصب الديني دفعهم لطرد يهود وهم الذين دعوهم للإسلام قبل القتال وقبلوا أن يعطوهم الأمان بعد الحصار وأبقوهم في خيبر بعد الاستسلام، فمكثوا فيها رغم قتلهم عبد الله بن سهل الأنصاري حيث اتهمهم بقتله المسلمون، فحلفوا أنهم لم يقتلوه، فوداه الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي قضية مقتله شرعت القسامة - وأقرَّهم بخيبر فاستقروا، حتى خلافة عمر رضي الله عنه فبدت منهم العداوة والبغضاء وغدروا بالمسلمين، ففدعوا يدي ورجلي عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو نائم في سهمه من خيبر، فأجلاهم عمر رضي الله عنه من خيبر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال، وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر فتصرفوا فيها.

وهكذا انتهى دور اليهود العسكري والاقتصادي في الحجاز وتفرغ المسلمون لإخضاع قبائل العرب المشركة ولتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام.

جهاد المشركين

تشريع الجهاد

الجهاد مصطلح شرعي يراد به القتال في سبيل الله لإقامة نظام عادل يلتزم بأحكام الشريعة ويسعى لتحقيق أهداف الإسلام في المعمورة، ولم يشرع الجهاد في الإسلام في العهد المكي، بل أُمِرَ المسلمون بألَّا يواجهوا المشركين بالقوة وألا يحملوا السلاح في وجوههم، فكان الشعار المعلن آنذاك ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وهو الموقف الذي اتخذ عندما كانت الدعوة جديدة مثل النبتة الصغيرة تحتاج إلى الماء والغذاء لترسخ جذورها وتقوى على مواجهة العواصف، فلو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بالسيف، فإنهم يجتثونها ويقضون عليها من أول الأمر، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين، وأن يتجهوا إلى تقويم أنفسهم وزيادة إيمانهم بدعوتهم عن طريق العبادة ومجاهدة النفس ودعوة الآخرين لتكثير سواد المسلمين، ولم يكن المسلمون متميزين عن المشركين في معيشتهم اليومية، وليس لهم معسكر ينحازون إليه عند إسلامهم، وإن كانوا يجتمعون بينهم في دار الأرقم وغيره لتلقي تعاليم الإسلام، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وآزر الأنصار دعوة الإسلام وصارت للمسلمين أرض يمتلكون السيادة عليها شرع الله تعالى الجهاد، وكان الإذن بالقتال دفاعاً عن النفس أولى المراحل وذلك في الآية الكريمة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، ثم أُمِرَ المسلمون بالقتال دفاعاً عن النفس والعقيدة في الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد.

وهو بذلك يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ الإنساني والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلو في الأرض، فالهدف وضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميزته عن أنواع الحروب الأخرى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

(اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليداً).

ثم كانت المرحلة الثالثة وتتمثل في الأمر بقتال المشركين وابتدائهم به، وذلك للتمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أية عقبات تضعها قوى الشرك، ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا ويظهر هذا التوجيه الأخير في الآيات الكريمة الآتية:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

إن الجهاد يمثل فريضة من أبرز الفرائض الإسلامية، وهو يوضح الهدف الكبير الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه وهو حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء الأرض وتكوين القوة العسكرية والسياسية اللازمة لدعم هذه الحرية وحماية المسلمين الجدد، ورغم أن اعتناق الإسلام على صعيد الأفراد لا يمكن أن يتحقق بالقوة إذ (لا إكراه في الدين)، وقد أوضحت النصوص الإسلامية أن تشريع الجهاد ليس مؤقتاً بظرف طارئ وإنما هو فرض ديني دائم ففي الحديث: (الجهاد باق إلى يوم القيامة)، وهو من فروض الكفاية إلا إذا غزيت ديار الإسلام في عقرها فيتعين على الجميع الدفاع عنها.

وكان الجهاد يوحد الجبهة الداخلية للأمة الإسلامية ويصرف طاقاتها في مواجهة أعدائها، وكان النداء بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله والمساواة بين الناس وتكريم الإنسان أياً كان لونه أو جنسه يسبق قوات المسلمين حيثما توجهت، فيجتذب النداء بالمبادئ السامية القلوب قبل أن تصدعها السيوف وهذا هو السر في انتشار الإسلام وانتصار قواته.

ويلاحظ من دراسة الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقادة الفتوح ومن متابعة أخبار الفتح الأخرى، مدى سيطرة العقيدة على الجند وتحقيقها للانضباط الدقيق في صفوفهم، وأن المثل العليا والرغبة في هداية الناس كانت تمثل الروح المهيمنة على القيادة ومعظم الجيش، ولا يمنع ذلك من القول بأن الغنائم كانت تحفز بعض المقاتلين وتوسّع عدد المشاركين، خاصة من الأعراب، وإن تخفيض الضرائب على سكان المناطق المفتوحة، وإبقاء الأملاك الشخصية

والمحافظة على البنية الاقتصادية لها يدل على أن روح الهداية والإعمار هي التي كانت تتحكم في موقف الفاتحين.

ويكفي أن القرآن الكريم أوضح بما لا يقبل الشك حريَّة الناس في اختيار الإسلام أو البقاء على النصرانية واليهودية حتى داخل المجتمع الإسلامي، وضمن سيادة الدولة الإسلامية، وهذا ما تثبته آيات القرآن الكريم وتدعمه الوقائع التاريخية الصحيحة حيث رحبت الشعوب بتحرير الإسلام لها من سيطرة الرومان والفرس، وعبَّر القبط في مصر واليعاقبة في الشام عن سرورهم بالحريَّة الدينية التي أعلنها الإسلام، ولولا هذا الإعلان الصادق لحرية المعتقد لذابت سائر الأقليَّات الدينية في المسلمين، ولما حافظت على وجودها حتى الوقت الحاضر رغم مرور أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام.

إن دراسة الواقع التأريخي لانتشار الإسلام تكشف عن حقيقة اعتناق الناس للإسلام منذ عصر السيرة، وأنه كان يتم في ظروف السلم بنطاق أوسع بكثير من ظروف القتال، فعدد من دخله بعد صلح الحديبية كان أضعاف عدد من دخله قبل الصلح، وكانت البعثات الدعوية في عصر السيرة إلى البوادي تترى رغم الأخطار المحدقة بها، وقد استمر انتشار الإسلام بعد انحسار سلطانه العسكري والسياسي، ومازال يمتد في العصر الحديث فلا شك إذًا في تهافت مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف.

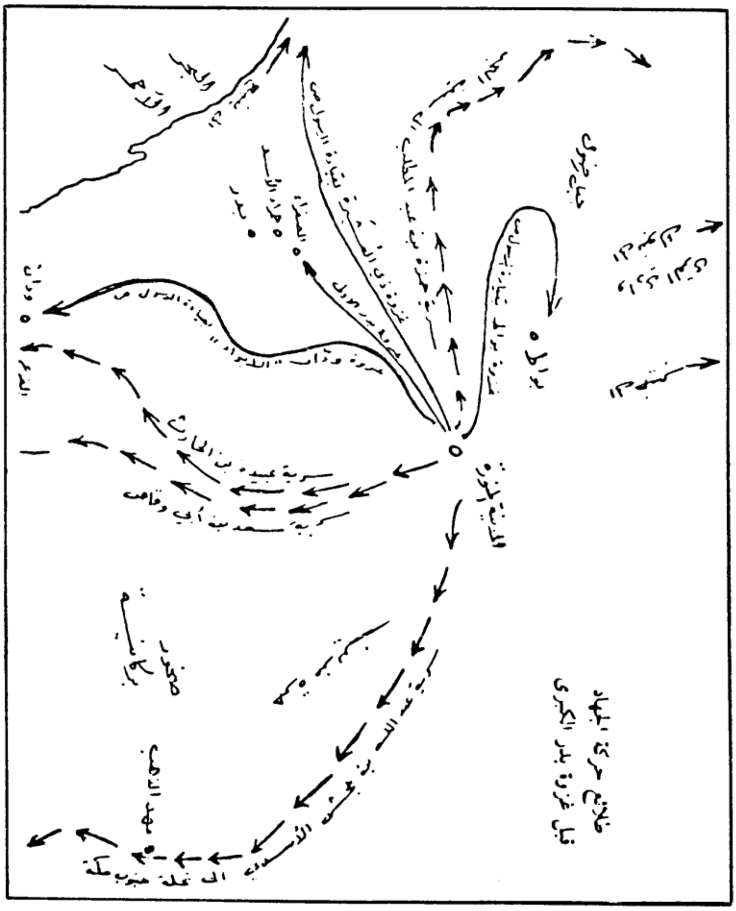
خلاصة حركة الجهاد
قبل غزوة بدر الكبرى
المدينة المنورة
سرية عبيدة بن الحارث
سرية سعد بن أبي وقاص

طلائع حركة الجهاد قبل غزوة بدر الكبرى

تمثل طلائع حركات الجهاد في غزوات وسرايا صغيرة اتجهت إلى مواقع غربي المدينة واستهدفت ثلاثة أمور:

الأول : تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

والثاني :عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل - في الصراع بين المسلمين وقريش - وهي خطوة هامة يعتبر تحقيقها نجاحاً للمسلمين، لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها، إذ بينها محالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بالإيلاف، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن، ثم إن هذه القبائل لها مصالح وثيقة مع قريش سادنة البيت الحرام حيث يحج العرب جميعاً إلى الأصنام حوله، هذا فضلاً عن وحدة العقيدة بين هذه القبائل وقريش، واشتراك الجميع في معاداة الإسلام، فلا شك إذًا في أن تمكُّن المسلمين من موادعة هذه القبائل وتحييدها خلال الصراع يعتبر نجاحاً كبيراً لهم في تلك المرحلة.

والثالث : إبراز قوَّة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة، بل يتحرَّكون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل، ويؤثِّرون في مصالحها وعلاقتها.

غزوة الأبواء (ودان)

وأولى الغزوات هي غزوة الأبواء، تسمى بغزوة ودّان أيضًا، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، والأبواء تبعد عن المدينة حوالي أربعة وعشرين ميلًا، ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في ١٢ صفر سنة اثنتين، وقد عاد الجيش إلى المدينة بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول.

غزوة سيف البحر

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سريَّة من الأبواء تضم ستين رجلًا بقيادة عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى سيف البحر، وثمَّة سرية أخرى من ثلاثين رجلًا بقيادة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه اتجهت إلى سيف البحر أيضاً في نفس الوقت للتعرض إلى قافلة قرشية، لكن السريتين لم تشتبكا مع القرشيين في قتال، فقد حالت القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك في سرية حمزة، وجرى تراشق بالسهام فقط بين سرية عبيدة والقرشيين.

ولا شك أن السريتين استهدفتا تهديد تجارة قريش بالدرجة الأولى، وهو تحذير أولي لقريش بأن تجارتها أصبحت في خطر ما لم تغير موقفها المتعنِّت من الإسلام.

غزوة بواط وغزوة العشيرة

وفي ربيع الثاني استمر المسلمون في حملاتهم باتجاه الطريق التجاري أيضاً، فكانت غزوة بواط إلى رضوى قرب ينبع، في مائتي مقاتل لاعتراض قافلة تجارية قرشية.

ثم كانت غزوة العشيرة بينبع في جمادى الأولى، ولم يقع قتال في رضوى والعشيرة لكنه جرت موادعة بني مدلج في العشيرة.

غزوة بدر الأولى

وقد تعرض كرز بن جابر الفهري في جمادى الآخرة في أعقاب العشيرة إلى أطراف المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي، فطارده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سفوان من نواحي بدر، فسميت الغزوة ببدر الأولى، وقد تمكن كرز من الإفلات من حملة المطاردة، لكن الحادث أكَّد للمسلمين ضرورة تأمين العلاقة مع جيران المدينة فاستمرت الحملات.

غزوة نخلة

ولم يقتصر تعرض المسلمين لتجارة قريش مع الشام، بل تعرضوا لطريق تجارتها مع اليمن أيضًا، فأرسلت سرية عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر رجب للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها وقتلوا قائدها وأسروا اثنين من رجالها وعادوا بها إلى المدينة، ونظراً لأن هذه

الحادثة وقعت في الشهر الحرام فقد أثار المشركون ضجة كبيرة بدعوى أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وكان لذلك وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عام ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام، والواقع أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه كان يدرك خطورة الأمر، فقد اختار قرار القتال بعد مشاورة لأصحابه، ولما رجع إلى المدينة وأراد تسليم الغنائم أبى الرسول صلى الله عليه وسلم تسلمها، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وانتشرت داعية قريش أن قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال!!

وقد نزلت آيات من كتاب الله توضِّح سلامة موقف المسلمين، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الغنائم، وفادى الأسيرين مع قريش، والآيات هي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، وهكذا بينت الآيات أن ما فعلته قريش من فتنة المسلمين عن دينهم وإخراجهم من مكة أكبر من قتال المسلمين في الشهر الحرام - مع إقرار مطلع الآية لحرمة الأشهر الحرم - فهلَّا التزمت قريش بالقيم والأعراف فيما فعلته مع المسلمين حتى يحق لها أن تعلن عن نفسها وكأنها القيّم على الأعراف والمقدسات!!

وقد تعرض الشبهة للبعض فيظن أن تعرض المسلمين لقوافل المشركين يشبه أعمال قطاع الطرق، فرد هذه الشبهة بأن المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش فإضعافها اقتصادياً وبشرياً من مقتضيات حالة الحرب، هذا فضلًا عما قامت به قريش من مصادرة أموال المسلمين عند هجرتهم من مكة، وما زالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر تسمح بضرب الطاقات البشرية والاقتصادية للعدو.

تحويل القبلة إلى الكعبة

وفي شهر رجب أيضًا، وقع حادث مهم لابد من التنويه به لأثره في التأكيد على تميز المسلمين واستقلالهم في وجهة صلاتهم، وهو تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجه في صلاته بمكة قبل الهجرة مستقبلًا بيت المقدس تاركاً الكعبة المشرفَّة بينه وبين بيت المقدس، وكان الأنصار كانوا يصلّون إلى بيت المقدس قبل الهجرة بثلاث سنوات.

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة استمر في الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، وفي منتصف رجب سنة اثنتين للهجرة أمره الله تعالى بالتحول في صلاته إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وقد لقي استمرار النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة في الصلاة إلى بيت المقدس ترحيباً من اليهود الذين كانوا قد عاهدوه.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى الوحي ويرغب في التوجه إلى الكعبة، عودة إلى قبلة إبراهيم عليه السلام حيث أول بيت مبارك بني لتوحيد الله وعبادته، ورغبة في تمييز المسلمين بقبلة مستقلَّة تقطع على يهود دعايتهم، فاستجاب الله تعالى له وحقق أمنيته: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وأول صلاة صلّاها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة كانت صلاة الظهر في بني سلمة، وأول صلاة صلّاها في المسجد النبوي العصر، وأول صلاة صلّاها أهل قباء في مسجدهم الفجر عندما بلغهم خبر تحويل القبلة، وكان وقع ذلك على اليهود شديداً، فقد غضبوا للأمر وقاموا بدعاية واسعة، فنزل القرآن الكريم في تفنيد مزاعمهم، فلما زعموا أن البر في الاتجاه بالصلاة إلى بيت المقدس نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾، وعندما يتساءلون عن سبب التحول عن القبلة الحق - في نظرهم - يعلّم نبيه أن يجيبهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقد أوضح القرآن الكريم أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة امتحان وابتلاء للمؤمنين لتظهر قوة عقيدتهم وتختبر سرعة استجابتهم لأوامر الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، يعني : وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس إلا للاختبار، وإنما يظهر وجه الابتلاء عندما تطالعنا الأخبار التي تعكس صدى تحويل القبلة حيث يزعم المشركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحيَّر في دينه ورجع إلى قبلتهم ويرجف المنافقون

في أوساط المؤمنين ما بال محمد يحولنا مرة إلى هنا ومرة إلى هنا، حتى خاف المسلمون على صلواتهم التي صلوها إلى بيت المقدس أن يبطل أجرها، فأوضحت الآية أن الله لا يضيع صلاة من صلى منهم إلى بيت المقدس ومات قبل تحويل القبلة دون أن يتجه إلى الكعبة، وهم عشرة من الصحابة، لأنهم أطاعوا الله ورسوله بالاتجاه إلى بيت المقدس كما أطاعه الأحياء في الاتجاه إلى الكعبة.

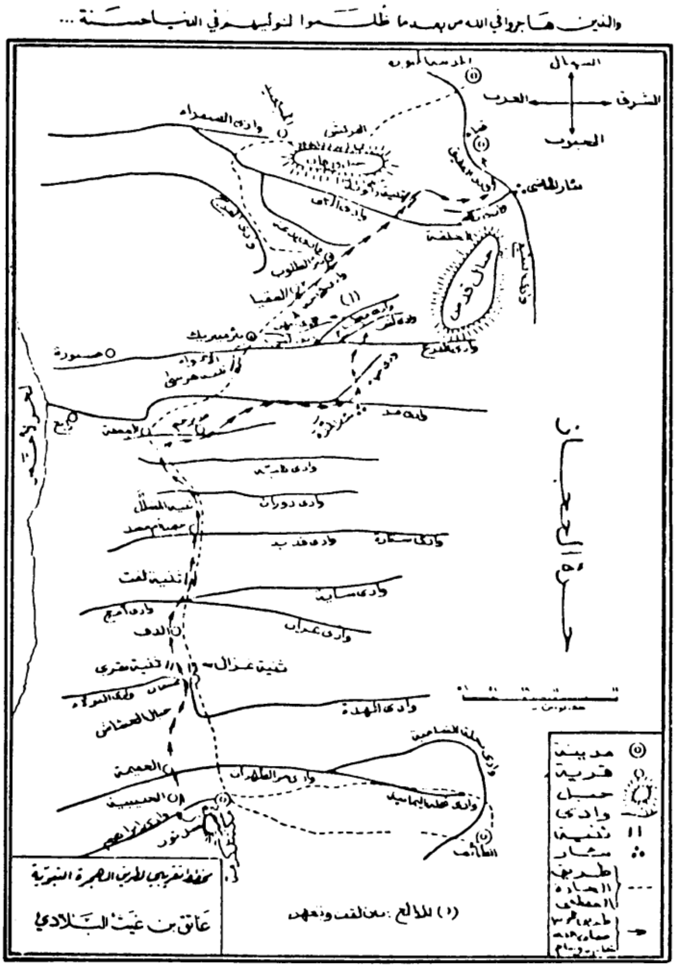

من كتاب «معجم معالم السيرة النبوية»

غزوة بدر الكبرى

رغم تهديد المسلمين لطرق التجارة إلى الشام فإنهم لم يشتبكوا مع قوافل قريش في قتال حاسم حتى هذه المرحلة، مما جعل قريشاً تواصل إرسال قوافلها التجارية مع تأمين الحراسة لها، ولكن المسلمين كانوا لها بالمرصاد، فلما بلغهم تحرك قافلة كبيرة لقريش عائدة من الشام ترصدوها، وكان يقودها أبو سفيان صخر ابن حرب، وكانت تحمل أموالاً عظيمة لقريش، ويحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وسلم عدي بن الزغباء وبسبس بن عمرو إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فلما رجع إليه بخبرها ندب أصحابه للخروج، وتعجَّل بمن كان مستعداً دون أن ينتظر من رغب في الخروج من سكان العوالي لئلا تفوتهم القافلة، لذلك فإن جيش المسلمين ببدر لا يمثل كل طاقتهم العسكرية فإنهم خرجوا لأخذ القافلة، ولم يعلموا أنهم سيواجهون جيش قريش، وفي هذا دليل على الأخذ بالأسباب ومن ذلك التجسس على العدو وجمع أخباره.

وقد خرج المسلمون إلى بدر وهم ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً فقط، منهم مائة من المهاجرين وبقيَّتهم من الأنصار، وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان ولأبيه رضي الله عنهما بعدم شهود بدر لأنهما كانا قد وعدا كفار قريش بعدم القتال معه فطلب منهما الوفاء بعهدهما.

وقد التحق بهم أحد شجعان المشركين في الطريق ليقاتل مع قومه، فردَّه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: (ارجع فلن أستعين بمشرك)، وكرر الرجل المحاولة فرفض الرسول، حتى أسلم الرجل والتحق مع المسلمين، فلا بد أن تظهر الصبغة العقائدية على أولى الملاحم الإسلامية، ولا بد من وحدة الهدف فيها.

وكان مع المسلمين سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم يتعاقبون على بعير واحد، فأرادا أن يؤثراه بالركوب فقال: (ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)، ويالروعة هذا الموقف عندما يستوي القائد والجند في تحمل الشدائد وقد تملكَّهم الصدق والإخلاص في التطلع إلى رضوان الله وثوابه! وكيف لا يحتمل الجند المشاق وقائدهم يسابقهم في ذلك، ولا يرضى أن يكون دونهم في مواجهتها، وهو شيخ في الخامسة والخمسين من عمره.!!

وقد أمَّر النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عند خروجه عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه للصلاة بالناس، ثم أعاد أبا لبابة رضي الله عنه من الروحاء - وهي على أربعين ميلا من المدينة - وعينه أميراً على المدينة، مما يبين أهمية وجود الأمير في الحضر والسفر والسلم والحرب.

وقد بلغ أبا سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها في طريق الساحل وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري لاستنفار أهل مكة، فلما علمت قريش الخبر استعد للخروج دفاعاً عن قافلتها، وقد ذكر ابن عباس وعروة بن الزبير رضي الله عنهم أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت في المنام أن رجلاً استنفر قريشاً وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة فتفتتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل، حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة، فسكنت مكة وتأولت الرؤيا.

وكان وقع الخبر على قريش كالصاعقة، فإن التعرض لقوافلها السابقة كان ينتهي بمناوشات خفيفة، أما هذه المرة فقد قصدوا أخذ القافلة فعلاً، يدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين: (هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)، لذلك سارعت قريش للخروج، وحاولت أن تجنِّد كل طاقتها، فلم يتخلف أحد من فرسانها ورجالها إلا البعض - مثل أبي لهب - ممن أرسل بدله رجلاً، فقد كانت قريش في أشد الغضب وكانت ترى فيما حدث امتهاناً لكرامتها وحطّاً لمكانتها بين العرب، فضلاً عن ضرب مصالحها الاقتصادية الكبيرة، لذلك كان من يظهر التردّد في الخروج مع جيش قريش يتجه إليه زعماء قريش بالعتاب واللوم حتى يقنعوه بالخروج.

وبلغ عدد جيش المشركين ألفاً، معهم مائتا فرس يقودونها، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.

وكان أثرياء قريش يذبحون من الإبل مرة تسعاً ومرة عشراً لإطعام الجيش، وقد انشق بنو زهرة ورجعوا إلى مكة بعد أن نصحهم بذلك الأخنس بن شريق حين علموا بنجاة القافلة، وهم بالجحفة شرق رابغ، ولكن معظم الجيش تقدموا حتى وصلوا إلى منطقة بدر، فلم تعد نجاة القافلة هدفهم بل تأديب المسلمين وتخليص طرق التجارة من تعرضهم، وإعلام العرب بقوة قريش وسلطانها.

وسقط بعض خدمهم أسرى بيد المسلمين عند عيون المياة ببدر، وقد عرف منهم الرسول صلى الله عليه وسلم عدد الجيش وموقعه وزعماءه، فقد ذكروا عدد ما ينحرون من الإبل لطعامهم كل يوم فقال: القوم ألف، وكل جزور لمائة.

ولم يرتح بعض المسلمين لنجاة القافلة ومواجهة جيش المشركين لأنهم لم يستعدوا للقتال، وقد صوَّر القرآن الكريم موقفهم في الآيات التالية: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان الأنصار قد بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية على أن يحموه في بلدهم، ولم يبايعوه على القتال معه خارج المدينة لذلك اقتصرت السرايا التي سبقت بدر على المهاجرين، ونظراً لوجود الأنصار مع المهاجرين ببدر وتفوقهم العددي الكبير فقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة رأيهم في الموقف الجديد، فكان أن شاور أصحابه عامة وقصد الأنصار خاصة، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال :يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا عليَّ أيها الناس؟ وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: "يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا".

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: "والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟"، قال: (أجل).

قال : "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله".

فسرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد رضي الله عنه، ثم قال : (سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم).

ومبدأ الشورى ثابت بنصوص القرآن الكريم وأحداث السيرة المطهرة، فكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه فيما لا وحي فيه، من الكتاب والسنة تعويداً لهم على التفكير بالمشاكل العامَّة وحرصاً على تربيتهم على الشعور بالمسئولية ورغبة في تطبيق الأمر الإلهي بالشورى وتعويد الأمة على ممارستها.

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وحبّهم للتضحية من أجل الإسلام بدأ بتنظيم جنده، فأعطى اللواء - الأبيض - إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين لعلي بن أبي طالب وسعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ظهرت الخلافات في جيش المشركين حيث كان عتبة بن ربيعة يريد العودة دون قتال المسلمين لئلا تكثر الترات بين الطرفين وبينهم أرحام وقرابات، أما أبو جهل فكان مصراً على القتال، وقد غلب رأيه أخيراً، فقام المشركون بإرسال جاسوس لهم للتعرف على عدد المسلمين فأخبرهم بعددهم، وأخذ أبو جهل يدعو على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أيُّنا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة"، فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لقد وصل المسلمون إلى بدر وقاموا باستطلاع المكان قبل وصول المشركين.

وقد وصف علي رضي الله عنه في رواية صحيحة كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر وأمامهم معسكر المشركين قال: (لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح، ثم

إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله صلى الله عليه يدعو ربه ويقول: (اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد)، فلما طلع الفجر نادى: (الصلاة عباد الله)، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرَّض على القتال، وقد أثبتت آية قرآنية نزول المطر ببدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان نظَّم الرسول صلى الله عليه وسلم جيشه في صفوف كصفوف القتال، وهو أسلوب جديد في القتال يخالف ما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكر والفر وهو الأسلوب الذي قاتل وفقه المشركون ببدر، ولا شكَّ أن نظام الصفوف يقلل من خسائر المسلمين ويعوض عن قلة عددهم أمام المشركين، وفيه مزية السيطرة على القوة بكاملها وتأمين العمق للجيش حيث تبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية في الخلف يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان.

وقد بني للرسول صلى الله عليه وسلم عريش أو قبَّة كان فيها، ليدير منها المعركة باقتراح من سعد بن معاذ رضي الله عنه وذلك لأهمية الحفاظ على القائد في المعركة.

ولما اقترب المشركون من المسلمين قال لهم الرسول الكريم: (لا يقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه، فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)، فلما سمع عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه ذلك قال : "يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟"، قال: (نعم)، قال: "بخ بخ". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك بخ بخ؟)، قال :لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال : (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكلن منهن، ثم قال: "لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة"، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

وحكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إكثار النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاء يوم بدر قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : (اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل

القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فأمده الله بالملائكة، وقد خرج من العريش وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر القتال بنفسه، قال علي رضي الله عنه: "لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً".

وقد بدأ القتال بمبارزات فردية، حيث تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه الوليد وأخوه شيبة طالبين المبارزة، فانتدب لهم شباب من الأنصار فرفضوا مبارزتهم طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم حمزة وعلياً وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم بمبارزتهم، وقد تمكن حمزة من قتل عتبة، ثم قتل عليٌ شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد وجرح كل منهما صاحبه فعاونه علي وحمزة فقتلوا الوليد، واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين.

وقد أثرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش وبدأوا الهجوم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم حرصاً على الإفادة من النبال بأقصى ما يستطاع فقال: (إذا أكثبوهم فارموا واستبقوا نبلكم)، ويذكر عروة وقتادة أن الرسول صلى الله عليه وسلم رمى الحصا في وجوه المشركين، وتدل على ذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم التقى الجيشان في ملحمة قتل فيها عدد من زعماء المشركين، منهم أبو جهل عمرو بن هشام الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه فرعون هذه الأمة، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء وهما غلامان لا يعرفانه حتى دلهما عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وقد أخبرا بأنهما يريدان قتل أبي جهل لما كان من سبه للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أجهز عليه ابن مسعود رضي الله عنه بعد أن أصاباه.

ومنهم أمية بن خلف، فقد أسره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بعد المعركة وأسر معه علياً ابنه، فلمحه بلال رضي الله عنه، وكان هو الذي يعذبه بمكة، فقال: رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا، واستصرخ عليه الأنصار فأعانوه على قتله هو وابنه علي.

وقد ثبت في القرآن والحديث أن الله تعالى أمدَّ المسلمين بالملائكة يوم بدر وكذلك صح أنها قاتلت ببدر.

فأما القرآن ففيه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأما الأحاديث:

فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم، أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة).

وقد أسر رجل من الأنصار العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال العباس: "يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم"، فقال الأنصاري: "أنا أسرته يا رسول الله"، فقال: (أسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم).

وفي مغازي الأموي بإسناد حسن: خفق النبي صلى الله عليه وسلم خفقة في العريش ثم انتبه فقال: (أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع أتاك نصر الله وعدته).

وفي صحيح البخاري: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟" قال: (أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها-)، قال :"وكذلك من شهد بدراً من الملائكة".

وأخذ المشركون يتساقطون صرعى، حتى قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وكان بعضهم يصرعون في مواضع كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بيَّن لأصحابه قبل المعركة أنهم يصرعون فيها وذكرهم بأسمائهم.

ثم فرُّوا لا يلوون على شيء تاركين غنائم كثيرة في ميدان المعركة.

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بسحب قتلى المشركين إلى آبار ببدر فألقوا فيها، وأقام ببدر ثلاثة أيام، ودفن شهداء المسلمين فيها، وهم أربعة عشر شهيداً، ولم يُذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليهم، وهي السنّة في الشهداء، ولم ينقل أحد منهم من بدر ليدفن في المدينة.

فلما كان اليوم الثالث ببدر وقف على أربعة وعشرين رجلاً منهم من صناديد قريش في إحدى الآبار، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول: (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟)، فقال عمر رضي الله عنه: "يا رسول الله ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم).

ولم يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم قافلة أبي سفيان بعد بدر، فقد وعده الله إحدى الطائفتين وأنفذ له وعده بالنصر على جيش المشركين.

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على حياة بعض المشركين الذين خرجوا إلى بدر مكرهين خائفين من لائمة قومهم، ومنهم من قدَّم يداً للمسلمين في العهد المكي، وقد سمَّى منهم بني عبد المطلب - وفيهم عمه العباس بن عبد المطلب - وأبا البختري بن هشام، فطلب من المسلمين أن يأسروهم، وقد تم أسر العباس بن عبد المطلب، وأما أبو البختري فقد أصر على القتال فقتل.

وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر فيما يصنع بالأسرى؟ فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم وعلَّل ذلك بقوله: "فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام"، وأشار عمر بن الخطاب بقتلهم: "فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها". ومال النبي صلى الله عليه وسلم إلى رأي أبي بكر بقبول الفدية، فنزلت الآية الكريمة في موافقة رأي عمر، رضي الله عنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ

الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبذلك أُحلّ لهم ما أخذوه من الفداء بعد أن عاتبتهم الآية في تفضيل الفداء على عقوبة أئمة الكفر، وهذا الحكم كان في أول الإسلام، ثم جعل الخيار للإمام بين القتل أو المفاداة أو المن عليهم دون فداء ما عدا الأطفال والنساء إذ لا يجوز قتلهم.

وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال فقد أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم، وقد فدت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة، فأطلق الصحابة أسيرها وردوا عليها قلادتها إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يكن لهم فداء من الأسرى، جعل فداؤهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة، ولم يكن همّ المسلمين أخذ المال من هؤلاء قدر إضعافهم معنوياً.

وقد أراد الأنصار إعفاء العباس من دفع الفدية، فهو عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجدَّته نجارية، فأبى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك وقال : (لا تذرون منه درهماً)، رغم أنه أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد أكره على الخروج إلى بدر، فدفع العباس مائة أوقية فدية، ودفع عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، في حين دفع بعض الأسرى الآخرين أربعين أوقية فقط .!!

أما الغنائم فقد وقع خلاف حولها إذ لم يكن حكمها قد شرع بعد، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبّت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على فواق بين المسلمين، أي بالتساوي بينهم.

وتدل الآثار الصحيحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أخرج الخُمس من الغنيمة ثم قسّمها بين المقاتلين، وكانت آية الخُمس قد نزلت ضمن سياق الآيات في غزوة بدر وهي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وقد أسهم الرسول صلى الله عليه وسلم لتسعة من الصحابة لم يشهدوا الغزوة لأعمال كلِّفوا بها في المدينة أو لإصابتهم بجروح وكسور في الطريق إلى بدر أو لغيرها من الأعذار، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالعناية بزوجته رقيّة في مرض موتها، وما إن اتضح الحكم في الغنائم وكيفية توزيعها حتى ثاب الناس إلى طاعة الله ورسوله واختفى كل خلاف، وكان هذا شأنهم في كل أمر يقطع فيه الله ورسوله بحكم، وكان تقسيم الغنائم في الصفراء في طريق عودة الجيش إلى المدينة، وقد تقدمهم زيد بن حارثة رضي الله عنه إليها بالبشارة، وقد تلقى المسلمون بالمدينة هذه البشارة بالفرح الغامر والحذر ألا يكون الخبر يقيناً، قال أسامة رضي الله عنه: (فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى)، وكانت الدهشة تعلوا الوجوه، أحقاً هزمت قريش وأسر زعماؤها وتحطمت كبرياؤها، وها هي أم المؤمنين سودة لفرط دهشتها تقول: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل!!

وفي طريق عودة الجيش إلى المدينة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل اثنين من الأسرى أولهما النضر بن الحارث وثانيهما عقبة بن أبي معيط، وكانا يؤذيان المسلمين بمكة ويشتدان في عداوتهما لله ولرسوله، فهما من أئمة الكفر ومجرمي الحرب وفي قتلهما صبراً درس للطغاة بليغ، وقد تخلى عقبة عن جبروته ونادى: من للصبية؟ فأجابه: (النار).

أما بقية الأسرى فقد استوصى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، حتى حكى أبو عزيز - وقد أسره أخوه مصعب بن عمير ومعه رجل أنصاري - أن آسريه كانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصُّوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسرى، حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، قال: فاستحي فأردها فيردها عليَّ ما يمسها، وهذا الموقف آية على حسن معاملة الأسير في الإسلام، وإيثاره بأفضل ما عند آسريه، مما لا نجد له مثيلاً في تواريخ الدنيا.

لقد كانت موقعة بدر - رغم صغر حجمها - فاصلة في تاريخ الإسلام لذلك سمّاها الله تعالى في كتابه بـ "يوم الفرقان" لأنه فُرِق بها بين الحق والباطل، وفيها حققت العقيدة الإسلامية انتصارات كبيرة، فقد ظهر استعلاؤها على سائر المصالح والمطامح والعلائق الدنيوية، فهاهم الأنصار يعلنون قبل بدئها أن التزاماتهم تجاه العقيدة لا تحدها اللوائح والعهود

التي قطعوها في بيعة العقبة الثانية، بل هم جند مطيعون ومضحُّون من أجل عقيدتهم دون شرط ولا قيد، وها هم المهاجرون يواجهون أقاربهم في المعركة، فلا تمنعهم أواصر القربى من قتالهم لأن مصلحة العقيدة فوق كل آصرة وارتباط، وقد استحق المقاتلون ببدر أن ينالوا التقدير الكبير الذي صار يلازم كلمة "البدري" حتى كوَّنوا الطبقة الأولى من الصحابة في سجل الجند لعمر رضي الله عنه فكانوا يأخذون أعلى العطاء واحتلُّوا الصفحات الأولى من كتب الطبقات، وهكذا نالهم التكريم الأدبي والمادي على مر الدهور.

وقد أوضحت الأحاديث الصحيحة فضل البدريين وعلُّو مقامهم في الجنة، فقد أصيب حارثة بن سراقة الأنصاري يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: "يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر واحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع"، فقال: (ويحك - أو هبلت - أوجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس).

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي أخبر قريشاً بخبر قدوم المسلمين لفتح مكة، فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم)، ولما قال عبد لحاطب: يا رسول الله ليدخلنَّ حاطب النار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية).

وكانت أصداء بدر عميقة في المدينة ومكة وأرجاء الجزيرة العربية، فقد استعلى المؤمنون في المدينة على اليهود وبقايا المشركين، فانخذل اليهود وظهرت أحقادهم التي دفعت بهم إلى المجاهرة بالعداء، فقد غاظتهم النتيجة التي ما كانوا يتوقعونها فلم يعودوا يسيطرون على أفعالهم وأقوالهم التي تنمُّ عن الغضب والحقد المتأججين، فاندفعوا نحو العدوان مما أدى إلى إجلاء بني قينقاع عن المدينة.

ودخل الكثيرون في الإسلام، وبعضهم دخل حماية لمصالحه بعد أن شعر برجحان كفة المسلمين، فكوَّن هؤلاء جبهة المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول.

وأما قريش في مكة فلم تكد تصدق ما حدث، فقد قتل ساداتها وأبطالها، وتشير رواية مرسلة إلى أنها تجلدت فمنعت البكاء والنياحة على قتلاها لئلا يشمت بهم المسلمون، وصممت على الانتقام والثأر، فأرسلت عمير بن وهب الجمحي لاغتيال الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد أن وعده صفوان بن أمية بإعالة أهله إن قتل، فمضى إلى المدينة متوشحاً سيفه، فلما بلغ المسجد أمسك به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذهب به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله عما جاء به فكذب عليه وزعم أنه جاء في طلب أسير، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بمقصده وما كان بينه وبين صفوان بن أمية، فأعلن إسلامه.

ومما فعلته قريش للثأر لقتلاها أنها اشترت اثنين من أسرى المسلمين في حادثة الرجيع وهما خبيب وزيد ابن الدَّثِنة فقتلتهما.

في أعقاب بدر

غزوة قرقرة الكدر

وجه المسلمون جهودهم للمحافظة على الحصار الاقتصادي الذي فرضوه على قريش، ويبدو أن بعض القبائل المستفيدة من تجارة قريش ومرورها بديارها قامت بتجمعات للتحرك ضد المسلمين، من ذلك أن بني سليم وغطفان جمعوا جموعاً بقرقرة الكدر، وهي ماء لبني سليم، فقاد النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً وداهمهم على الماء، فلم يجد سوى الإبل، فقد فرَّ المقاتلون لما سمعوا بقدومه، فأقام ثلاثة أيام بالمكان ثم عاد.

غزوة السويق

وقام أبو سفيان بعمل انتقامي حيث قدم سراً بمائتي فارس من مكة، ولجأوا إلى بني النضير في أطراف المدينة، ثم قام بمهاجمة ناحية العريض - واد بالمدينة في طرف حرة واقم - فقتل رجلين وأحرق نخلاً، وفر عائداً إلى مكة، وقد تعقبه المسلمون إلى قرقرة الكدر فلم يدركوه، وعادوا بالسويق الذي رماه المشركون للتخفف من حملهم والمسارعة في الفرار فسميت بغزوة السويق.

غزوة ذي أمر

وبعد شهر من غزوة السويق التي كانت في محرم سنة ثلاث، غزا الرسول صلى الله عليه وسلم نجداً يريد غطفان التي تجمعت في "ذي أمر"، ففروا أمامه ولم يقع قتال، فأقام طيلة شهر صفر في ديارهم ثم عاد إلى المدينة، وبين الواقدي أن عدد جيش المسلمين كان أربعمائة وخمسين رجلاً.

غزوة بحران

ثم غزا الرسول صلى الله عليه وسلم بحران من ناحية الفرع على الطريق التجارية بين مكة والشام، ولم يقع قتال، وذكر الواقدي أنه غاب عن المدينة في هذه الغزوة عشرة أيام، وبين ابن سعد أن عدد جيش المسلمين كانوا ثلثمائة مقاتل.

غزوة القردة

وحاولت قريش الإفادة من الطريق التجارية عبر نجد باتجاه العراق للإفلات من الحصار الاقتصادي، فخرج أبو سفيان في تجار من قريش معظمها من الفضة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في مائة، فلقي القافلة في ماء من مياه نجد يدعى القردة، ففر الرجال تاركين القافلة غنيمة له، وكان ذلك بعد ستة أشهر من غزوة بدر الكبرى، وكانت القافلة تحمل وزن ثلاثين ألف درهم من الفضة، وأن قيمتها بلغت مائة ألف درهم، وهكذا أحكم الحصار الاقتصادي على قريش، وأحسَّت بشديد وطأته على اقتصاد مكة التجاري، فكان لابد أن تقوم بعمل حاسم لإنقاذ اقتصادها وسمعتها.

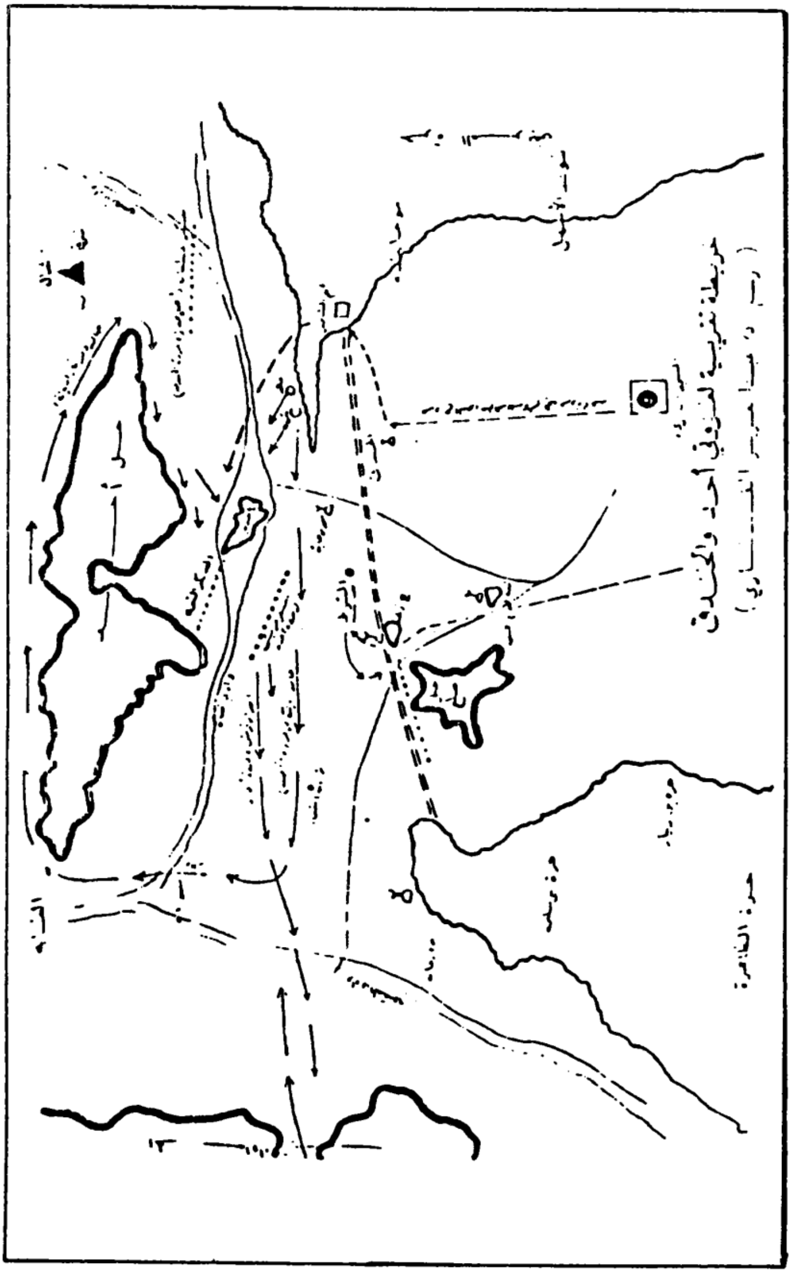
خريطة تقريبية لموقعي أحد والخندق

غزوة أحد

عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، ويقع في شمال المدينة وكان يرتفع ١٢٨ متراً، ويبعد عن المسجد النبوي خمسة أكيال ونصف الكيل - والكيل يطلق على الكيلو متر -، ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى "عينين" وهو الذي عرف بعد المعركة بجبل الرماة، وبين الجبلين واد عرف بوادي قناة.

وقد وقعت هذه المعركة نتيجة هجوم شنَّه قريش على المدينة ولم يمر على غزوة بدر سوى سنة واحدة وشهر، واستهدفت الثأر لقتلاها ببدر، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر، وكانت غزوة أحد في شوال في السنة الثالثة من الهجرة.

وقد ذكر ابن إسحق أن قريشاً أعدَّت لغزوة أحد منذ هزيمتها ببدر حيث خصصت القافلة التجارية التي نجت أو أرباحها لتجهيز جيشها، وبلغ عدد جيش قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس جعلوا على ميمنتها خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وكان فيهم سبعمائة دارع، ويتكون جيش المشركين من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة.

وقد علم المسلمون بقدوم جيش المشركين لغزو المدينة، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق وهي من الوحي - حكاها لأصحابه فقال: (رأيت في رؤيا أني هززت سيفا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً - والله خير - فإذا هم المؤمنون يوم أحد)، وفي رواية أخرى: (ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة).

وقد شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها، وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن، أو الخروج لملاقاة جيش قريش فقال: (إنَّا في جنَّة حصينة)، فقال ناس من أصحابه من الأنصار: "يا نبي الله إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم"، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته، فتلاوم القوم فقالوا : "عرض نبي الله صلى الله عليه وسلم بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله صلى الله

عليه وسلم: أمرنا لأمرك تبع"، فأتى حمزة رضي الله عنه فقال له: "يا نبي الله إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، فلا بد أن يطبق الرسول صلى الله عليه وسلم التوجيه القرآني: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، والرسول الكريم علَّمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع.

وتتلخص دوافع الراغبين في الخروج بإظهار الشجاعة أمام الأعداء، وبرغبة الذين فاتتهم المشاركة في غزة بدر أن يشاركوا في موقعة مماثلة، أما رأي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن وافقه فمبني على الإفادة من حصون المدينة في الدفاع مما يقلل من خسائر المدافعين ويزيد من خسائر المهاجمين، ثم الإفادة من طاقات سائر السكان حتى الذين لا يستطيعون القتال في الميادين المكشوفة من النساء والصبيان.

وعلى أية حال فقد ارتفعت راية سوداء وثلاثة ألوية، لواء المهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولواء الأوس يحمله أسيد بن حضير، ولواء الخزرج يحمله الحباب بن المنذر رضي الله عنهم أجمعين، واجتمع تحتها ألف من المسلمين والمتظاهرين بالإسلام، معهم فرسان فقط ومائة دارع، ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم درعين، تعويداً لأمته على الأخذ بالأسباب الماديَّة ثم التوكل على الله.

وخرج الجيش الإسلامي إلى أُحُد مخترقاً الجانب الغربي من الحرة الشرقية حيث انسحب المنافق عبد الله بن أبي بن سلول بثلثمائة من المنافقين، مدَّعياً أنه لن يقع قتال مع المشركين!! معترضاً على قرار الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج بقوله: "أطاعهم وعصاني".

وقد بيَّن القرآن الكريم أن انسحاب عبد الله بن أبي بالمنافقين إنما هو تنقية لصف المؤمنين، فلا يبقى فيهم من يرجف ويخذِّل، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ففكَّروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألَمَّ بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين وهما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وقد صوَّر القرآن الكريم موقف الطائفتين فقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

وفي موقع "الشيخين" عسكر جيش المسلمين واستعرض الرسول صلى الله عليه وسلم صغار السن الذين لا طاقة لهم بقتال ممن هم أبناء أربع عشرة سنة أو أقل فردَّهم سوى رافع بن خديج رضي الله عنه أجازه لما قيل له أنه رام، وسمرة بن جندب رضي الله عنه لما علم أنه أقوى من رافع، وبلغ عدد من ردهم من صغار السن أربعة عشر صبياً، وقد صح أن ابن عمر رضي الله عنه منهم وموقف هؤلاء الصبيان وهم مقبلون على الموت بشجاعة ورغبة يبعث على الدهشة حقاً، وقد تنافسوا في ذلك متطلعين إلى نيل الشهادة في سبيل الله دون أن يجبرهم قانون للتجنيد أو تدفع بهم قيادة غاشمة إلى ميدان القتال، ولكن أليست هذه سمات التربية المحمدية ومزايا الروح الإسلامية؟

وقد تقدم الجيش الإسلامي إلى ميدان أحد، واتخذ مواقعه بموجب خطَّة محكمة، حيث نظم الرسول صلى الله عليه وسلم صفوف جيشه جاعلاً ظهورهم إلى جبل أحد ووجوههم تستقبل المدينة، وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير رضي الله عنه فوق جبل عينين المقابل لأحد لحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم، وشدَّد عليهم بلزوم أماكنهم وقال: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم)، وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي تقدم وهو يواجه أحد وظهره إلى المدينة.

وقد اشتد القتال بين الجيشين وتراجع المشركون إلى معسكرهم فقد أبدى المسلمون بطولة فائقة، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ سيفاً فيقول: (من يأخذ مني هذا؟) فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول :"أنا أنا"، قال : (من يأخذه بحقه؟)، قال: فأحجم القوم، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: "أنا آخذه بحقه"، فأخذه ففلق به هام المشركين، وقاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه قتال الأبطال، فلما طلب سباع بن عبد العزى

المبارزة تصدى له فقتله، وكان وحشي مولى جبير بن مطعم قد وعده مولاه أن يعتقه إن قتل حمزة - وكان حمزة قد قتل عمه طعيمة بن عدي ببدر - فكمن له وحشي تحت صخرة فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غيلة!!

واستشهد آخرون في هذه المرحلة الأولى من القتال منهم حامل الراية داعية الإسلام مصعب بن عمير رضي الله عنه، قال خباب رضي الله عنه: "هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى - أو ذهب - لم يأكل من أجره شيئاً كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة -أي كساء - كنّا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غطينا بها رجلاه خرج رأسه"، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (غطوا بها رأسه واجعلوا الأذخر أو قال ألقوا على رجليه من الأذخر)، ولما استشهد مصعب بن عمير رضي الله عنه أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه اللواء، وقد أشارت الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، إلى قتل المسلمين للمشركين بإذن الله في هذه المرحلة من القتال.

فلما رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبد الله بن جبير رضي الله عنه: "الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون"، فقال عبد الله بن جبير: "أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟"، قالوا: "والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم".

وتبين رواية مرسلة للسدّي ما حدث بعد نزول الرماة، فقد رأى خالد بن الوليد - وكان على خيالة المشركين - الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون دون تخطيط، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان - والد حذيفة بن اليمان - وهو شيخ كبير وابنه يصيح فيهم: "أبي"، فأجهزوا عليه، فقال حذيفة: "يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"، ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما دام لا تحكمه خطة منظمة، فأخذوا يتساقطون شهداء في الميدان وقد فقد المسلمون اتصالهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وشاع أنه قد قتل.

وأسقط في يد المسلمين، ففرَّ كثيرون منهم من ميدان القتال، وانتحى بعضهم جانباً فجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت على الحياة بعد فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أنس بن النضر رضي الله عنه الذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً ويقول:

"والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله كيف أصنع". فلما رأى في أحد بعض المسلمين جلوساً محتارين صاح: "واهاً لريح الجنة أجد دون أحد"، فقاتل حتى قتل ووجد في جسده بضع وثمانون أثراً من بين ضربة ورمية وطعنة، حتى ما عرفته أخته الربيع بنت النضر إلا ببنانه، ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضي الله عنه بعد المعركة يتفقد أنس بن النضر رضي الله عنه، فوجده بين القتلى وبه رمق فما كان منه - بعد أن ردَّ على سلام الرسول صلى الله عليه وسلم= إلا أن قال: "أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم شفر يطرف"، وفاضت عينه، فما أروعها من وصيّة وما أقواه من التزام لا يؤثر فيه الموت وآلام الجراحات.!!

وقد حكى القرآن خبر فرارهم والعفو عنهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، ويبدو أنهم ترخَّصوا في الفرار لسماعهم بخبر قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أول من عرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حيّ هو كعب بن مالك رضي الله عنه فنادى في المسلمين يبشرهم، فأمره الرسول بالسكوت لئلا يفطن له المشركون.

وقد صمدت فئة قليلة كانت حول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ثبت في الميدان ولم تزعزعه الأحداث كما هو شأنه عليه الصلاة والسلام في سائر المواقف الصعبة، فكان يدعو أصحابه، كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾، وخلص بعض المشركين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فقال: (من يردُّهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟)، فقاتلوا عنه واحداً واحداً حتى استشهد الأنصار السبعة، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قتالاً مشهوراً حتى شلَّت يده بسهم أصابها، وقاتل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناوله السهام ويقول: (إرم فداك أبي وأمي)، وكان سعد من مشاهير الرماة، ودافع أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رامياً، فكان النبي يشرف على القتال فيقول له أبو طلحة: "لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك"، وكان إذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول الرسول: (انثرها لأبي طلحة)، وقد عبَّر الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعجابه بقتاله فقال: (لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة).

ورغم استبسال الصحابة في الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أصيب إصابات كثيرة فكسرت رباعيته وشج وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: (كيف يفلح قوم خضَّبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الإسلام)، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، لقد استبعد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوفق الله من آذوه بهذه الصورة فأخبره الله سبحانه بأن ذلك ليس ببعيد إن أراد الله هدايتهم، فقال عليه الصلاة والسلام لما طمع بإسلامهم: (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

وقد ورد أن أبا دجانة رضي الله عنه كان يحمي الرسول صلى الله عليه وسلم بظهره حتى كثر النبل فيه، وأن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أبلى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن عينه أصيبت فردها الرسول صلى الله عليه وسلم بيده، فكانت أحسن عينيه، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : "أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟"، قال: (في الجنة)، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل.

وكان عبد الله بن جحش رضي الله عنه قد دعا ربه فقال: "إني أقسم أن نلقي العدو فإذا لقينا العدو أن يقتلوني ثم يبقروا بطني ثم يمثّلوا بي فإذا لقيتك، سألتني: فيم هذا ؟ فأقول :فيك"، فلقى العدو ففعل ذلك به.

وقد أبى عمرو بن الجموح رضي الله عنه - وكان أعرج شديد العرج مما يسقط عنه الجهاد - إلا أن يشهد المعركة مع أبنائه الأربعة طلباً للشهادة، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة؟"، قال :(نعم)، قال: "فوالذي بعثك بالحق لأطأن بها الجنة اليوم إن شاء الله ثم قاتل حتى قتل".

واستشهد حنظلة بن أبي عامر الغسيل رضي الله عنه وهو جنب، وكان عروساً ليلة أحد فسمع النداء بالخروج فعجَّل بالخروج، ولم يغتسل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن صاحبكم لتغسله الملائكة).

وقد أبى شيخان كبيران تركهما الرسول صلى الله عليه وسلم في الحصون مع النساء والأطفال عند خروجه إلا اللحاق به والاشتراك في القتال طلباً للشهادة، وهما اليمان والد حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش رضي الله عنهما، فاستشهدا في الميدان، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فقتله المسلمون خطأً، ووداه الرسول صلى الله عليه وسلم فتصدق ابنه حذيفة بديتّه مما زاده عند الرسول خيراً.

وسارع عمرو بن أقيش رضي الله عنه إلى أحد، وكان للإسلام كارهاً، فلما رآه المسلمون منعوه، فقال: "إني قد آمنت"، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال لأخته: "سليه حميةً لقومك أو غضباً لهم أو غضباً لله؟"، فقال : "بل غضباً لله ولرسوله"، فمات فدخل الجنة وما صلى لله صلاة.!!

وقد ثبت أن رجلاً أخبر الناس الرسول صلى الله عليه وسلم عن حسن بلائه، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنه من أهل النار)، ثم أخبرهم الرجل بأنه إنما قاتل عصبية لقومه وليس لله، وقد انتحر بسهمه لما آلمته الجراح!!

وفي هذين الخبرين آية وبيان لمكان النية في الجهاد، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ومن قاتل لغير ذلك من الأهداف مهما سمت في نظر الناس فليس بشهيد.

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد، منهنَّ أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التي اضطرت للقتال دفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جرحت جراحاً كثيرة، وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقي العطشي وتداوي الجرحى، وثبت أن أم سليط الأنصارية كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين.

وصح أن عائشة رضي الله عنها وأم سليم رضي الله عنها قامتا بسقي الجرحى بعد تراجع المسلمين، وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرض لهن الأعداء، مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم إلا إذا داهم العدو ديار الإسلام فيجب قتاله من الجميع رجالاً ونساء.

ورغم ما أصاب المسلمين من جراح، وما لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم من أذى فقد استمر القتال بين الطرفين وأجهد الجانبين.

وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالانسحاب نحو شعاب أحد، وقد لحق به المسلمون حتى صعد في أحد شعابه وتمكَّن المسلمون من صدِّ المشركين عنه، وقد ثبت أن الله تعالى أرسل جبريل وميكائيل من الملائكة ليقاتلا دفاعاً عنه، ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

وكان المسلمون مغتمِّين لما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ولما أصابهم، فأنزل الله تعالى عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا وقد زال عنهم الخوف وامتلأت نفوسهم طمأنينة، قال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: "كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط فآخذه"، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، وهذه الطائفة التي أهمَّتها نفسها دون أن تفكر بمصاب المسلمين ومصير الإسلام هي المنافقون الذين قال قائلهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾، ولا شك أن النعاس أعاد للمسلمين بعض طاقتهم ونشَّطهم للدفاع عن أنفسهم خلال الانسحاب، وقد تبعهم بعض المشركين منهم أبي بن خلف الجمحي وقد حلف أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرماه الرسول صلى الله عليه وسلم بحربة فجرحه فرجع إلى أصحابه ومات في طريق عودتهم من أحد.

وقد يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفُّوا عن مطاردة المسلمين في شعاب أحد، ولكن أبا سفيان تقدم من المسلمين وخاطبهم:

فقال: "أفي القوم محمد؟"

فقال : (لا تجيبوه)

فقال : "أفي القوم ابن أبي قحافة؟"

فقال : (لا تجيبوه)

فقال : "أفي القوم ابن الخطاب؟".

فقال : "إنَّ هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا"

فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال : "كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك"

قال أبو سفيان : "أعل هبل"

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أجيبوه)

قالوا : "ما نقول؟"

قال :قولوا: (الله أعلى وأجلّ).

قال أبو سفيان : "لنا العزى ولا عزى لكم"

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوا)

.قالوا : "ما نقول؟ "

قال :قولوا: (الله مولانا ولا مولى لكم)

.قال أبو سفيان : "يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني".

قال عمر: "لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار".

وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه ليعرف وجهة قريش، وهل تنوي غزو المدينة أم العودة إلى مكة، فقد امتطت قريش إبلها ورضيت بما أحرزت من انتقام دون أن تتطلع إلى نصر حاسم بتعقب المسلمين في شعاب أحد والقضاء عليهم قضاء مبرماً أو بغزو المدينة.

وما إن غادرت قريش المكان حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيداً، ولم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد قتل منها اثنان وعشرون رجلاً، وأسر منهم أبو عزة الشاعر فقتل صبراً لأنه أخلف وعده للرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يقاتل ضده عندما منَّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل بأحد.

وقد صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم جمع بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدَّم عند الدفن أكثرهم حفظاً للقرآن، وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا ولم يصلَّ عليهم، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)، وقد دفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وحمل بعض الشهداء أهلوهم ليدفنوهم في المدينة فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنهم في أماكن استشهادهم بأحد.

ولما انتهى من دفن الشهداء صف أصحابه وأثنى على ربه، فقال: (اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة - أي الفاقة - ، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذِّبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق)، ثم ركب ورجع إلى المدينة.

وقد ظلت ذكرى شهداء أحد عميقة في نفسه عليه الصلاة والسلام فقد تمنى أن يكون استشهد معهم، فكان إذا ذكروا يقول: (أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي نحص الجبل أي سفحه) .

وكانت صور المقاتلين الشجعان تمر بمخيلته فيثنى عليهم، لما أعطى علي رضي الله عنه سيفه لفاطمة رضي الله عنها قائلا: هاك السيف، فإنها قد شفتني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأقلح والحارث بن الصمة).

وفي المدينة خرجت نسوة وأطفال يتطلعون في وجوه الجيش ينشدون آباءهم وأزواجهم، وقد استعلت فيهم معاني الإيمان واحتمال المصاب، فلما أخبرت حمنة بنت جحش رضي الله عنها باستشهاد أخيها عبد الله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب استرجعت واستغفرت، ثم أخبرت باستشهاد زوجها مصعب فصاحت وولولت، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن زوج المرأة منها لبمكان). لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ومرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا :خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت :أرونيه حتى أنظر إليه؟ فلما رأته قالت : "كل مصيبة بعدك جلل" - تعني صغيرة !!

وقد بشَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر فقال لابنة عبد الله بن عمرو والد جابر رضي الله عنهم: (لم تبكين؟! فما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفع).

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة نحيباً وبكاءً على قتلاهم، فقال: (لكن حمزة لا بواكي له)، فبكته نسوة الأنصار، فقال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ونهاهن عن النياحة أشد ما يكون النهي، وبذلك حرِّمت النياحة على الميت إلى الأبد ولم يؤذن إلا بدمع العيون.

وقد نزل في شهداء أحد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وقال الجمهور: إن الشهداء أحياء حياة محققة، وإن أرواحهم في أجواف طير خضر، وإنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون، وكذلك نزلت آيات القرآن الكريم تمسح جراحات المسلمين، وتزيل عنهم آثار أُحُد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

حمراء الأسد

وكان المسلمون يواجهون في المدينة اليهود الشامتين والمنافقين االمرجفين ويواجهون في أطراف المدينة الأعراب المشركين ،الذين كانوا يتطلعون بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها.

وكان ثمَّة احتمال أن تندم قريش فتعود لمهاجمة المدينة فكان لابد من التحرك السريع لاستعادة موقع المسلمين والاحتفاظ بمكانتهم، ومن هنا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الجيش الذي شهد "أُحُداً" أن يخرج لمطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد، رغم إصابة الكثيرين منهم بالجراح، ولم يأذن لسواهم بالاشتراك في حملة المطاردة هذه، وقد سارع سبعون من الصحابة للاشتراك ثم بقية الجيش فصار عددهم ستمائة وثلاثين.

وقد أثنى القرآن الكريم على مبادرتهم بالخروج، قالت عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: "أبوك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً".

ولا شك أن حملة حمراء الأسد حققت الأهداف المرسومة بإظهار قدرة المسلمين على التصدي لخصومهم من الأعراب وقريش رغم ما أصابهم في أحد، فإنهم إذا كانوا قادرين على التحرك العسكري خارج المدينة فهم أقدر على مواجهة اليهود والمنافقين داخلها.

في أعقاب أحد

وكان من نتائج غزوة أحد أن تجرَّأ الأعراب حول المدينة على المسلمين، وظهر ذلك في التجمعات التي قام بها بنو أسد بقيادة طليحة الأسدي وأخيه سلمة في نجد، وبنو هذيل بقيادة خالد بن سفيان الهذلي في عرفات، مستهدفين غزو المدينة طمعاً في خيراتها وانتصاراً لشركهم ومظاهرة لقريش وتقرباً إليها، وكان ذلك في شهر محرم من السنة الرابعة للهجرة.

وتحرك المسلمون قبل أن يستفحل الأمر، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه بمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى طليحة الأسدي الذي تفرق عنه أتباعه تاركين إبلهم وماشيتهم بيد المسلمين من هول المفاجأة.

وأرسل عبد الله بن أنيس الجهني رضي الله عنه إلى خالد بن سفيان الهذلي فقتله وهو يرتاد بماشيته في بطن عرنة، واد معروف قرب عرفات.

وسعت هذيل للثأر لسفيان الهذلي ولجأت إلى الغدر والخديعة، ففي صفر سنة أربع قدم وفد من قبيلتي **عضل والقارة** المضريتين إلى المدينة، وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسل جمعاً من أصحابه ليفقهوهم في الدين، فبعث عشرة من الصحابة وجعل عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه أميراً، فلما وصل الوفد بين عسفان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان من هذيل وهم قريب من مائتي مقاتل، فأحاطوا بهم وقد لجأ الوفد إلى مكان مرتفع، وأعطى الأعراب الأمان من القتل للوفد، لكن عاصم بن ثابت قال :أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً وستة من أصحابه، وبقي ثلاثة فأعطاهم الأعراب الأمان من جديد فقبلوا، فلما نزلوا إليهم ربطوهم وغدروا بهم، فقاومهم عبد الله بن طارق رضي الله عنه فقتلوه واقتادوا الاثنين إلى مكة فباعوهما لقريش وهما خبيب وزيد رضي الله عنهما.

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث، ليستحد بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منهم، فقال خبيب: "أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى"، فكانت تقول: "ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزق رزقه الله"، فخرجوا به من

الحرم ليقتلوه، فقال :دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم، فقال: "لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت"، فكان أول من سَنَّ الركعتين عند القتل هو.

ثم قال: اللهم أحصهم.

ثم قال:

ما أبالي حين أقتل مسـلماً على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتل.

أما زيد بن الدَّثِنة رضي الله عنه فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل ببدر، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: "والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي".

فقال أبو سفيان: "ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً".

ويرى الواقدي أن هذيلاً على اتفاق مع عضل والقارة في الترتيب لهذا الحادث، الذي عرف بحادثة **الرجيع**، نسبة إلى الماء الذي جرت عنده. ورغم ما حدث في الرجيع فإن وفود المسلمين لدعوة الأعراب لم تنقطع إذ لا بد من تبليغ دعوة الإسلام مهما غلت التضحيات.

فلما قدم أبو براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنَّة على المدينة دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، ووعد بإجارة وفد يرسله النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة الأعراب في نجد، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم وفداً برئاسة المنذر بن عمرو الخزرجي رضي الله عنه في شهر صفر من سنة أربع ومعه سبعون من القراء، فلما وصلوا **بئر معونة** من نجد على بعد ١٦٠ كيلاً عن المدينة غدر بهم، فقتل رسولهم إليه حرام بن ملحان رضي الله عنه، طعنه رجل بأمره في ظهره برمح فصاح "الله أكبر فزت ورب الكعبة !!"، وأحاط بهم الأعراب من رعل وذكوان من بني سليم، ودافع

القراء عن أنفسهم فاستشهدوا سوى عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه كان قد تأخر عنهم، فعاد وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر، فمكث يدعو على **رعل وذكوان** شهراً في صلاة الغداة وذلك بدء تشريع القنوت، وكان القراء السبعون هؤلاء من خيار المسلمين يحتطبون بالنهار، ويتصدقون به على أهل الصفة ويصلون بالليل ويتدارسون القرآن.

وهكذا فقد المسلمون في شهر صفر من سنة أربع وثمانين من خيرة الدعاة، فلم يكن تبليغ الدعوة الإسلامية سهلاً مأموناً في بوادي الأعراب، بل كان محفوفاً بالأخطار والموت ولكن لم يحل شيء دون الدعاة وتبليغ دعوة الله.

وكان لابد من تأديب الأعراب الغادرين فقاد الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً إلى بني لحيان - الذين قتلوا القراء في الرجيع - في جمادي الأولى من سنة أربع فعلموا به وتفرقوا في الجبال.

غزوة بدر الموعد

وفي ذي القعدة من سنة أربع خرج الرسول صلى الله عليه وسلم بألف وخمسمائة من أصحابه إلى بدر ومعه عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك في انتظار قدوم قريش حسب الموعد المحدد منذ وقعة أحد مع أبي سفيان زعيم قريش، وانتظر المسلمون ثمانية أيام دون أن تقدم قريش، وكان أبو سفيان قد خرج بألفين ومعهم خمسون فرساً فلما وصلوا مر الظهران على أربعين كيلاً من مكة عادوا بحجة أن العام عام جدب، وكان لإخلافهم الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم.

وقد واصل المسلمون إرسال سراياهم إلى الأنحاء المختلفة من نجد والحجاز لتأديب الأعراب فقاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه سرية إلى طيء وأسد بنجد، فتفرقوا في الجبال دون أن يقع قتال.

دومة الجندل

وقاد الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً من ألف مقاتل في شهر ربيع الأول من سنة خمس باتجاه **دومة الجندل**، وقد بلغه وجود تجمع للمشركين بها، ولكن الجمع تفرق عندما علموا بقدوم المسلمين الذين أقاموا أياماً في المنطقة بثوا خلالها السرايا فلم يلقوا مقاومة ورجعوا إلى المدينة بعد أن وادع في العودة عيينة بن حصن الفزاري.

من تاريخ التشريع

وفي سنة أربع من الهجرة حرمت الخمر.

وفي ذي القعدة من سنة أربع للهجرة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية، وفي حادثة زواجها نزل فرض الحجاب.

غزوة بني المصطلق – المريسيع.

بنو المصطلق بطن من قبيلة خزاعة الأزدية اليمانية، وكانوا يسكنون قديداً وعسفان، على الطريق من المدينة إلى مكة، في حين تنتشر ديار خزاعة على الطريق من المدينة إلى مكة ما بين مر الظهران التي تبعد عن مكة ٣٠ كيلاً وبين الأبواء التي تبعد عن مكة ٢٤٠ كيلاً، ويتوسط بنو المصطلق ديار خزاعة، وموقعهم مهم بالنسبة للصراع بين المسلمين وقريش، وقد عرفت خزاعة بموقفها المسالم للمسلمين، وربما كان لصلات النسب والمصالح مع الأنصار تأثير في تحسين العلاقات، رغم المحالفات القديمة بينها وبين قريش ذات المصالح الكبرى في الطريق التجارية إلى الشام، ورغم سيادة الشرك في ديار خزاعة حيث كانت هضبة المشلل التي كانت بها "مناة "، وديارها كانت أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، فلعل هذه العوامل أعاقت - في نفس الوقت - انتشار الإسلام في خزاعة عامة وبني المصطلق، خاصة أنهم يستفيدون مع جانب الموقع التجاري بوجود مناة الطاغية في ديارهم معنوياً ومادياً حيث يحج إليها العرب.

وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم ضمن الأحابيش في جيش قريش في غزوة أحد.

وقد تجرأت بنو المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أحد كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة، ولعلها كانت تخشى انتقام المسلمين منها لدورها في غزوة أحد، وكذلك كانت ترغب في أن يبقى الطريق التجاري مفتوحاً أمام قريش لا يهدده أحد لما في ذلك من مصالح لها محققة فكانت - بزعامة الحارث ابن أبي ضرار - تتهيأ للأمر بجمع الرجال والسلاح وتأليب القبائل المجاورة ضد المسلمين.

وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بريدة بن الحصيب الأسلمي للاطلاع على أحوالهم، فأظهر أنه جاء لعونهم وعرف نيتهم في الهجوم على المدينة فعاد وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يبيتون.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم بجيشه من المدينة نحو ديار بني المصطلق.

ولا توجد روايات صحيحة تبين عدد الجيش الذي خرج إلى ديار بني المصطلق أو عدته، ولكن الذهبي قال إنهم سبعمائة مقاتل، وقال الواقدي: إن معهم ثلاثين فرساً، للمهاجرين عشرة وللأنصار عشرون.

ويذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنه - وهو شاهد عيان حضر الغزوة – أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية، ورواية مسلم صريحة في أن الغارة وقعت دون إنذار لبني المصطلق لأنهم ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وقد كانوا يعتبرون في حرب مع المسلمين منذ اشتراكهم مع قريش في غزوة أحد، كما كانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فبوغتوا واضطربوا ولم يتمكنوا من المقاومة طويلاً، بل إن رواية الصحيحين لا تشير إلى المقاومة، وأخذ المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فتمَّت قسمة ذلك بينهم.

ولم تصح رواية في عدد القتلى ومقدار السبي والأموال سوى ما ذكره الواقدي أنه قتل عشرة من بني المصطلق وأسر سائرهم فما أفلت منهم إنسان، ويذكر أيضاً أن الغنائم كانت ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة، وأن السبي كان مائتي أهل بيت، وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لهلال رمضان بعد أن غاب عنها شهراً إلا ليلتين.

وعند ماء **المريسيع** كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشتفي من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم في نفسه وأهل بيته فشنُّوا حرباً نفسيَّة مريرة من خلال حادثة الافك التي اختلقوها.

ولندع الصحابي زيد بن أرقم رضي الله عنه وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك قال: كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول: "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل"، فذكرت ذلك لعمي أو لعمر فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي : ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك؟ فأنزل الله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ، فقال: (إن الله قد صدَّقك يا زيد).

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ما حدث عند ماء المريسيع، وأدَّى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري : يا للأنصار، وقال المهاجري :يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال دعوى جاهلية؟) قالوا: "يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار"، فقال :(دعوها فإنها منتنة) .

فسمع بذلك عبد الله ابن أبي فقال : "فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقام عمر رضي الله عنه فقال :"يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (دعه لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه). وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد.

لقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن العصبيات هي من دعاوي الجاهلية، وقال: (لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره)، فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهلي لـ (أنصر أخالك ظالماً أو مظلوماً).

ويلاحظ اهتمامه بسمعة المسلمين في أوساط القبائل بترك معاقبة المنافق عبد الله بن أبي لما في ذلك من مصلحة تأليف القبائل، ومنع الدعاية التي قد تنفر من الإسلام، ولم يقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على معالجة الموقف بالبيان وإنما أمر الجيش بالرحيل طيلة اليوم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، ليشغل الناس عن الحديث في الفتنة.

وقد ضعف مركز عبد الله بن أبي بن سلول في قومه، فكانوا يعنِّفونه ويلومونه كلما أخطأ، بل إن ابنه عبد الله بن أبي بن سلول استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه، فنهاه فقال: (لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته)، ومنع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخولها، مع شدة بِرِّه بأبيه وهيبته له وهو من أعجب

المواقف التي تدل على صفاء عقيدة الابن وتخلّصه من عصبية الجاهلية رغم قرب عهده بها، مما يبين قوة تأثير الإسلام في اتباعه، وإحداثه التغيير العميق في مقاييسهم وسلوكهم.

وبعد فشل محاولة المنافقين في إثارة العصبية الجاهلية أعماهم الغضب وقد واتتهم الفرصة لإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم في نفسه وأهل بيته، وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خرجت معه إلى غزوة بني المصطلق، وذلك بعدما شرع الله الحجاب للنساء، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه - إذ كانت صغيرة خفيفة - ومضى المسلمون إلى المدينة تاركيها في البيداء، وقد وجدت عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يعرفوا بخبرها ويعودوا إليها، فمرَّ بها صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، وهو من خيرة الصحابة فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد استغل المنافقون هذا الحادث ونسجوا حوله، وتولى ذلك عبد الله بن أبي بن سلول وأغرى بالكلام مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم فاتهموا عائشة أم المؤمنين بالإفك.

وضاق الرسول صلى الله عليه وسلم ذرعاً بدعايات المنافقين وصرَّح صلى الله عليه وسلم بذلك للمسلمين وهم مجتمعون في المسجد معلناً ثقته بزوجته وبالصحابي صفوان بن المعطل، وقد أبدى سعد بن معاذ رضي الله عنه استعداده لقتل من يروّج ذلك إن كان من الأوس، فأظهر سعد بن عبادة معارضته لسعد بن معاذ، لأن عبد الله بن أبي من الخزرج حتى كادت تقع الفتنة بين الأوس والخزرج لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم هدَّأهم.

ومرضت عائشة فاستأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الذهاب إلى بيت أبيها فأذن ثم علمت بخبر الإفك، فكانت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، وهي تنتظر أن يعلم الله نبيَّه ببراءتها برؤيا صادقة، وقد انقطع الوحي شهراً عانى خلاله الرسول صلى الله عليه وسلم أشد المعاناة، فقد طعنه المنافقون في عرضه وآذوه في زوجه، ولا شك أنه كان يتطلع إلى الوحي وهو في أشد الحاجة إليه لتطمئن نفسه ويخرس ألسن النفاق ويذب عن زوجه الحبيبة وأبيها الذي كان أحب الناس إليه، ثم نزل الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾.

وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على قريبه مسطح رضي الله عنه، فحلف أن لا ينفق عليه فنزلت الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فعاد أبو بكر إلى النفقة عليه.

ولا شك أن المسلمين الثلاثة اشتركوا في إشاعة الإفك، ولكن الدور الكبير كان للمنافقين أتباع عبد الله بن أبي بن سلول، وإنما ذكرت أسماء الثلاثة لأنهم مسلمون، وما كان ينبغي أن يقعوا في حبائل المنافقين وقد عاتبهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

وكان كثير من المؤمنين على يقظة كاملة وثقة كبيرة بآل بيت النبوة، فلما سمع أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بإشاعات المنافقين قال: "سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم".

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة حد القذف على مسطح وحسان وحمنة رضي الله عنهم، أما عبد الله بن أبي بن سلول الذي تولى كبر الإفك وقاد حملة الدعاية فلم يقم عليه الحد، ولعل ذلك لأن هذا المنافق كان لا يترك دليلاً ضده فلا يتكلم بالإفك أمام المؤمنين.

وقد نالت عائشة رضي الله عنها تعويضاً عن محنتها وصبرها وحسن توكلها على الله، فنزل في براءتها قرآن يتعبد به الناس على مر الدهور.

وما أن رجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حتى جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها تستعينه في عتق نفسها من ثابت بن قيس بن الشماس الذي وقعت في سهمه، وكانت قد كاتبته، وقد ذكرت للرسول مكانها في قومها، فقضى عنها في كتابها وتزوجها فلما علم الناس بذلك أطلقوا سائر السبي، وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُعتِق مائة أهل بيت، فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها فكان عتقها صداقها.

وقد جاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فلما خيَّرها اختارت البقاء مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وقد أسلم الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه وقومه، وجعله الرسول صلى الله عليه وسلم يلي صدقات قومه.

وكان لزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من جويرية وإطلاق السبي أثر بالغ في تأليف قلوبهم، فبدأوا عهداً جديداً من المشاركة في الجهاد ذوداً عن الإسلام، ومن الطاعة والانقياد لأحكامه، حتى إذا تأخر مصدق الرسول صلى الله عليه وسلم مرة عن موعد دفع الزكاة قلق الحارث بن أبي ضرار وقومه واعتزموا المضي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة السبب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسل الوليد بن عقبة ليقبض صدقاتهم، فمضى بعض الطريق ثم خافهم فرجع وزعم أنهم منعوه الزكاة وأرادوا قتله، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سرية إليهم، فحلف لهم أنه ما رأى الوليد، ومضى معهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فوضح موقفه، فنزلت بحقه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

ومن الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، أما من لم تبلغهم دعوة الإسلام فتجب دعوتهم أولاً قبل قتالهم.

ومنها صحَّة جعل العتق صداقاً كما فعل صلى الله عليه وسلم مع جويرية بنت الحارث رضي الله عنها في هذه الغزوة، وكما فعل مع صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها في غزوة خيبر فيما بعد.

ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة حيث أصابت القرعة عائشة رضي الله عنها فخرج بها

وخروج عائشة رضي الله عنها يدل على جواز خروج النساء في الغزو، وقد تقدم في غزوة أحد ذكر ذلك وبيان حدوده.

ومن الأحكام ثبوت إقامة الحد على القاذفين.

ومنها جواز استرقاق العرب كما حدث في الغزوة وهو قول جمهور العلماء.

وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر لأنه معاند للقرآن.

وفي حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تأثَّر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه، ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها، كما حكى القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾.

ولا شك أن حركات المسلمين العسكرية في أنحاء شبه الجزيرة العربية وتحديهم لقريش في بدر الموعد، واستمرارهم في الضغط على اقتصاد مكة بالسيطرة على الطرق التجارية كل ذلك كان يهيء ظرفاً مناسباً لتحالف المشركين مع يهود الذين أجلى المسلمون منهم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، وبقيت قريظة ظاهرها احترام الحلف بينها وبين المسلمين وباطنها الحقد والرغبة في الانتقاض والانتقام، وقد تكشفت حقيقة ذلك فيما حدث في غزوة الأحزاب.

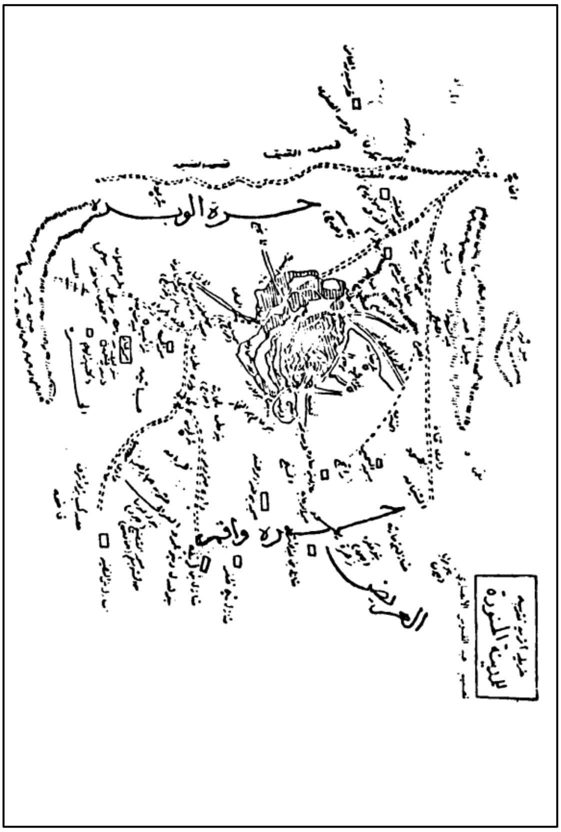

غزوة الخندق – الأحزاب-

وقد جرت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس، وتعتبر غزوة الأحزاب للمدينة حلقة من حلقات الصراع العسكري بين المسلمين وقريش، فالحرب معلنة بين الطرفين، ولا حاجة لتلمّس الأسباب الرئيسية لوقوع القتال، ولكن ثمَّة عوامل مباشرة في التأثير يمكن بيانها، فغزوة الأحزاب جاءت على أثر إخفاق قريش في تحرير طرق تجارتها إلى الشام في غزوة أحد، فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد، لكنهم عجزوا عن القضاء عليهم أو دخول بلدتهم، وظلَّت طرق التجارة القرشيَّة مهدَّدة، ونشطت سرايا المسلمين وغزواتهم بعد أحد حتى محت آثار أحد في المدينة والبوادي معاً، فكانت قريش تفكّر بالقيام بعمل عسكري يحسم الموقف لصالحها بالقضاء على المسلمين في المدينة قضاءً مبرماً، ونظراً إلى أن قوة قريش وحدها لا تكفي لإنجاز المهمة، فقد سعت قريش إلى التحالف مع الآخرين لحرب المسلمين، وجاءت الفرصة المواتية عندما أجلى الرسول صلى الله عليه وسلم يهود بني النضير من المدينة، فذهب عدد من زعمائهم الموتورين إلى خيبر، ومن هناك بدأوا اتصالاتهم بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والعودة إلى أرضهم وأموالهم في المدينة، وهكذا خرج وفد منهم إلى مكة فيهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري، فدعوا قريشاً إلى حرب المسلمين، ووعدوهم أن يقاتلوا معهم وشهدوا بأن الشرك خير من الإسلام، وقد نزلت في ذلك الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، ثم خرجوا من مكة إلى نجد حيث حالفوا قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، وهكذا تحالف الأحزاب بجهود من يهود بني النضير، ويذكر موسى بن عقبة أن وفد اليهود وعد غطفان بنصف ثمر خيبر لإغرائها بالمشاركة في التحالف.

وكان مكان تجمع جيش قريش وحلفائها في مر الظهران التي تبعد أربعين كيلاً عن مكة، حيث وافاهم حلفاؤهم من بني سليم وكنانة وأهل تهامة والأحابيش، ثم تحركوا نحو المدينة حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة، أما غطفان وبنو أسد فنزلوا بذنب نقمي.

وما أن علم المسلمون بخبر تجمع الأحزاب لغزوهم حتى بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم باستشارتهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف، وكان هذا دأبه في المواقف كلها تأليفاً لقلوب أصحابه ويقتدي به من بعده وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحرب والأمور الجزئية الأخرى، وتدريباً لهم على التفكير بالمشاكل التي تواجه المجتمع والدولة

فيظهر فيهم القادة النابهون والساسة المتمرسون، وليشعروا بمسئوليتهم تجاه القضايا العامة ومشاركتهم فيها، وذكر السندي: وقد أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في المنطقة الشمالية من المدينة ليربط بين طرفي حرة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها.

ولم يعترض أحد على خطة الدفاع عن المدينة، فقد كانت جموع الأحزاب كبيرة، وكانت دروس أحد ماثلة قريبة، والخندق يشكل حاجزاً يمنع الالتحام المباشر بين الغزاة والمسلمين، ويمنع اقتحام المدينة، ويوفر للمسلمين موقعاً دفاعياً جيداً، فيكبدون الغزاة الخسائر برشقهم بالسهام من رواء الخندق.

وشرع المسلمون بحفر الخندق، وكان طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، وكان على المهاجرين الحفر من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب.

وقد تم الحفر بسرعة رغم الجو البارد والمجاعة التي أصابت المدينة في ذلك الوقت، فكان طعام الجيش قليلاً من الشعير يخلط بدهن سنخ -متغير الرائحة لقدمه - ويطبخ فيأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة لفرط الجوع، وأحياناً لا يجدون سوى التمر، وقد يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً.

ولكن حرارة الإيمان طغت على آثار البرد والجوع القارصين، فكان المسلمون يعملون بقوة ويحملون التراب على أكتافهم، وفيهم من كان لا يخدم نفسه من التجار والزعماء، وقد استووا جميعاً في الحفر وحمل الأتربة وهم في غاية الحماس يرددون الأهازيج، والرسول صلى الله عليه وسلم يحفر معهم وينقل التراب حتى اغبرَّ بطنه ووارى التراب جلده، وقد شدَّ على بطنه حجراً لفرط الجوع، وكان يردد معهم الأهازيج والأرجاز مشاركة لهم وتواضعاً، ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكـــينة علينا وثبت الأقدام إن لا قينا

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتـــنة أبينا

وكان يمد صوته بآخرها.

وكان المسلمون يقولون وهم يحفرون وينقلون التراب:

نحن الذين بايعوا محمداً　　　على الجهاد ما بقينا أبَدَاً

فكان يجيبهم بقوله:

(اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة)

وربما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم.

وكان لمشاركته صلى الله عليه وسلم بصورة فعلية - وليست رمزية - أثر كبير في الروح التي سادت موقع العمل، وقد تمكَّن المسلمون من إنجاز الخندق في ستة أيام فقط، وبذلك نفذوا متطلبات خطة الدفاع عن المدينة قبل وصول الأحزاب.

وقد حدثت عدة معجزات للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء حفر الخندق، منها تكثير الطعام، فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنه ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم من الجوع الشديد فطلب من زوجته أن تصنع له طعاماً، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعاً من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام، وسارَّه بكمية الطعام، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأسقط في يد جابر وأهله، لكن الله بارك في البرمة على يد النبي صلى الله عليه وسلم فأكل منها الجميع حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه.

ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر رضي الله عنه وهو يحفر بأمر غيبي حيث قال له: (تقتلك الفئة الباغية)، فكان أن قتل في صفين.

وعندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر ضربها الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث ضربات ففتتها، وقال إثر الضربة الأولى :(الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة)، ثم ضربها الثانية، فقال : (الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض)، ثم ضرب الثالثة، وقال : (الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة).

وهكذا بشرهم بما سيكون من فتوح لهذه البلدان وهم محصورون في خندق يقرصهم البرد والجوع! فقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، وأما المنافقون فقد سخروا من هذه البشارة، وكان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، ولقد صوَّر القرآن الكريم أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل أدق تصوير والآيات هي: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والآيات تشير إلى حالة النفاق وما تولده من القلق في النفوس، والجبن في القلوب وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذِّل المرجف، فهم يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت، بل ويحثُّون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام.

ورغم كل تخذيل المنافقين وإرجافهم وظروف المجاعة وشدة البرد، فقد مضى المسلمون في تنفيذ مهامِّهم وإكمال خطة الدفاع عن المدينة، فلما أنجز الخندق، وضع الرسول صلى الله عليه وسلم النساء والأطفال في حصن فارع، وهو أقوى حصون المسلمين وهو لبني حارثة.

وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم جيشه، فأسند ظهرهم إلى جبل سلع داخل المدينة، ووجوهم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين.

وكان تفوق المشركين العددي كبيراً فقد بلغوا عشرة آلاف مقاتل، وذكر ابن سعد أن قريشاً وأحابيشها ومن قدم معها من العرب كانوا أربعة آلاف ومعهم ثلثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ثم التحق بهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبعمائة، وأضاف ابن الجوزي أن فزارة كانوا ألف رجل، وأشجع كانوا أربعمائة رجل وبنو مرة كانوا أربعمائة، وبذلك يكون جملة العدد ستة آلاف وخمسمائة مقاتل، وتكون بقية العشرة آلاف مقاتل من بني أسد وبقية غطفان.

وأما جيش المسلمين فقد كانوا ثلاثة آلاف مقاتل.

ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم كثرة الأحزاب، رأى أن يخفف الضغط على المدينة، وأن يصالح غطفان بأن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لعام، لكنه لما شاور سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج رضي الله عنهما قالا: "لا والله ما أعطينا الدنيَّة من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام". وفي رواية أنهما قالا: "يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منَّا ثمرة إلا شراء أو قرى"، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم المفاوضة مع الأعراب، وكان يمثلهم الحارث الغطفاني قائد بني مرة.

وقد اشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة قد نكثوا العهد وغدروا بهم، وكانت ديار بني قريظة في العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور، فكان موقعهم يمكِّنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى بني قريظة للاستطلاع، فلما رجع قال له : "فداك أبي وأمي"، فقال : (إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير)، ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما فمضيا إلى بني قريظة فوجداها قد نقضت العهد ومزقت الصحيفة، إلا بني سعنة فإنهم خرجوا من الحصون إلى المسلمين وفاء بالعهد، وكان ذلك على أثر سفارة حيي بن أخطب النضري الذي أقنع كعب بن أسد القرظي بنقض العهد مع المسلمين، مبيناً له قوة الأحزاب وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين مواعداً له إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معه حصنه، فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة.

وقد وصف القرآن الكريم البلاء الذي أصاب المسلمين في الآية: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

فالأحزاب جاءوا من فوقهم، وبنو قريظة من أسفل منهم، والمنافقون ظنوا بالله الظنونا، فأصاب المسلمين زلزال شديد وبلاء عظيم، ولكن الإيمان العميق والتربية الدقيقة جعلت المسلمين يصمدون أمام سائر هذه الأخطار.

وقد نظمت الدوريات لحراسة المدينة فكان سلمة بن أسلم الأوسي رضي الله عنه يقود مائتي رجل، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقود ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير لإشعار بني قريظة بيقظتهم ووجودهم.

وقد فوجئت قريش برؤية الخندق، واحتاروا في كيفية اقتحامه، إذ كلما همّوا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام، واشتد الحصار وطال أربعاً وعشرين ليلة، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال.

وقد أورد ابن إسحق وابن سعد روايات دون أسانيد تفيد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق وذكرا أسماء خمسة منهم، وأن علياً بارز عمرو بن عبد ود فارس قريش وقتله، وأن الزبير قتل نوفل المخزومي وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم، ولكن هجمات المشركين لم تنقطع حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يتمكنوا من أداء صلاة العصر - في أحد الأيام - في وقتها بل صلوها بعدما غربت الشمس، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت بعد، لأنها إنَّما شرعت بعد ذلك في غزوة ذات الرقاع.

ورغم طول مدة الحصار فقد استشهد من المسلمين ثمانية، منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه زعيم الأوس، أصيب في أكحله، فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حيث انتقض جرحه، وكان من خيرة الصحابة وله مناقب كثيرة وتضحيات عظيمة من أجل الإسلام.

فكانت غزوة الخندق أقل الغزوات قتلى رغم كثرة أعداد المشتركين فيها من الجانبين، إذ لم يقع التحام مباشر بينهم، حيث حال الخندق دون ذلك.

وكان طول الحصار سبباً في إضعاف معنوية الأحزاب، خاصة إن أهدافهم لم تكن واحدة، فقريش تريد القضاء على المسلمين لتحرير طرق تجارتها وللانتصار لوثنيتها، والأعراب يريدون نصراً سريعاً لنهب المدينة، ويهود مترددة بحيث لم تدخل القتال رغم نقضها للعهد خوفاً من ترك الأحزاب للحصار وجعلها تقف وحدها وجهاً لوجه أمام المسلمين فهي تريد رهائن قبل اشتراكها في القتال.

وأياً كان فإن معنوية الأحزاب انهارت لطول الحصار من ناحية، ولهبوب العواصف الشديدة الباردة فقد نصر الله المسلمين بريح الصبا، فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رجالهم، فنادى فيهم أبو سفيان بالرحيل، وما نالهم من الغزوة سوى التعب وخسارة النفقات، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ولنترك الحديث لشاهد عيان هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم لاستطلاع حال الأحزاب، قال: "لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر -برد-، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟)، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم كرر قوله مرتين فلم يجبه أحد، فقال: (قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم). فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: (اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ)، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تذعرهم عليَّ)، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم: يا رسول الله تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلاّ في عصبة يوقد النار، وقد صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجو من الله مالا يرجون، ولما فرغت قررت -بردت-، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: (قم يا نومان)".

وهكذا انفضَّ الأحزاب عن المدينة فتنفَّس المسلمون الصعداء: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، واستجاب الله لدعاء نبيه خلال الحصار: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)، وقد عبَّر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الآثار الخطيرة التي ترتبت على فشل

الأحزاب في غزوة المدينة رغم ما حشدوه من طاقاتهم- وهو أقصى ما يستطيعون- بقوله: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)، مما يدل على تغير الاستراتيجية الإسلامية من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى مرحلة الهجوم، ومما يوضح ذلك أن مسرح الأحداث انتقل من المدينة وما حولها إلى مكة والطائف ثم تبوك بعيداً عن عاصمة الإسلام "المدينة المنورة" .

في أعقاب غزوة الخندق

سرية الخبط - سرية سيف البحر-

استثمر المسلمون ما أصاب الأحزاب من فشل، وضيَّقوا على قريش الخناق الاقتصادي من جديد فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار لرصد قافلة لقريش قرب ساحل البحر، فأصابهم الجوع حتى أكلوا الخبط، فسمّي جيش الخبط، وقد نحروا بعض الإبل ثم نهاهم أبو عبيدة لحاجتهم إليها إذا لقوا عدوهم، فألقى إليهم البحر بحوت عظيمة فأكلوا منها نصف شهر وحملوا بعضها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأكل منها.

ولعل هذه السرية آخر ما أرسل من سرايا وبعوث لتهديد تجارة مكة، حيث توقف ذلك تطبيقاً لمعاهدة صلح الحديبية، بعد أن أجهد اقتصاد مكة حيث عبَّر أبو سفيان عن ذلك بقوله: (وكانت الحرب قد حصبتنا).

غزوة الحديبية

الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة وتعرف الآن بالشميسي، وفيها مسجد الرضوان، وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي ومعظمها من الحِلِّ خارجه، وقد سميت الغزوة بها لأن قريشاً منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية.

وكان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية في يوم الاثنين مستهلِّ ذي القعدة من السنة السادسة، وقد قصد بخروجه العمرة، وفي ذلك إظهارٌ لحقيقة مشاعر المسلمين نحو البيت العتيق وتعظيمهم له، وإبطال لدعاية قريش المعادية التي تريد إظهارهم وكأنهم لا يعترفون بحرمة الكعبة.

وكانت قريش تفطن لهذه المعاني عندما منعت المسلمين من دخول مكَّة وأداء العمرة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقَّع أن تصدّه قريش وقد تقاتله، لذلك أراد أن يخرج بأكبر عدد من المسلمين، فاستنفر أهل البوادي من الأعراب فأبطأوا عليه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وقد سجل القرآن الكريم على الأعراب هذا الموقف الضعيف : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

ونظراً لتوقّع الشرّ من قريش فإن المسلمين أخذوا معهم سلاحهم فكانوا مستعدين للقتال، وبلغ عدد المسلمين في الحديبية ألفاً وأربعمائة رجل.

وقد صلى المسلمون بذي الحليفة وأحرموا بالعمرة، وساقوا الهدي سبعين بدنة، وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم عيناً إلى مكة هو بسر بن سفيان الخزاعي الكعبي رضي الله عنه – وكان حديث إسلام -.

ولما بلغ المسلمون الروحاء على بعد ٧٣ كيلاً عن المدينة، أرسل أبا قتادة الأنصاري رضي الله عنه - ولم يكن محرماً بالعمرة- مع جمع من الصحابة إلى غيقة على ساحل البحر الأحمر حيث بلغه وجود بعض المشركين الذين يخشى من مباغتتهم للمسلمين، وقد اصطاد لهم أبو قتادة حماراً وحشياً وهم حرم فأكلوا منه ثم شكّوا في حلِّ ذلك، فالتقوا بالرسول

صلى الله عليه وسلم في السقيا على بعد ١٨٠ كيلاً عن المدينة فسألوه فأذن لأصحابه بأكل اللحم ما داموا لم يعينوا على صيده.

ومضى المسلمون إلى أن وصلوا عسفان على ثمانين كيلاً من مكة، فجاءهم بسر بن سفيان الكعبي رضي الله عنه بخبر قريش وأنها سمعت بمسيرهم، وجمعت لهم الجموع لصدِّهم عن دخول مكة، وأن خالد بن الوليد خرج بخيلهم إلى كراع الغميم- على بعد ٦٤ كيلاً عن مكة- طليعة، فاستشار النبي أصحابه في أن يغير على ديار الذين ناصروا قريشاً واجتمعوا معها ليدَعُوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال: (أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدُّونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين وإلا تركناهم محروبين؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه، قال :امضوا على اسم الله).

وقد صلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه بعسفان صلاة الخوف، وذلك عندما علم بقرب خيل المشركين منهم، فتكون أول صلاة خوف صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان في الحديبية، وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقاً وعرة عبر ثنية المرار وهي مهبط الحديبية وقال: (من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يُحط عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل)، فكان أول من صعدها خيل الخزرج.

وقد غيرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم طريق جيشه تجنباً للقتال مع خالد بن الوليد وخيالة المشركين، فلما أحسَّ خالد بذلك رجع إلى مكة فخرجت قريش فعسكرت ببلدح، فنزلوا على الماء وسبقوا المسلمين إليه، حتى إذا اقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من الحديبية بركت ناقته فقالوا: "خلأت القصواء"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل)، ثم قال : (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)، ثم عدل عن دخول مكة إلى أقصى الحديبية فنزل على بئر قليلة الماء فاشتكى المسلمون العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيها، فمازال يجيش بالري حتى صدروا عنه، فكان تكثير الماء من معجزاته عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على الاستبقاء على حياة قريش ويأمل إسلامهم وإفادة الدعوة منهم، فالناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام

إذا فقهوا، وقريش من أكثر العرب فصاحة وذكاء وخبرة ومكانة، واستبقاؤها للأسلام فيه خير عظيم للدولة والدعوة كما برهنت الأيام، وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يتحسر لعناد قريش وفنائها في الحرب مع المسلمين، فيقول: (يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة).

وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم لقريش - عن طريق رجال محايدين أحياناً وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض أحياناً أخرى- أنه لا يريد حرب أحد، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وقد قدم عليه بديل بن ورقاء الخزاعي وبيّن أن قريشاً تعتزم صدّ المسلمين عن دخول مكة، فأوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه، فقام بتوضيحه لقريش، فأجابته قريش: "وإن كان إنما جاء لذلك، فلا والله لا يدخلها أبداً علينا ولا تتحدث بذلك العرب".

والحق أن المسلمين كسبوا الموقف سياسياً سواء دخلوا مكة وتحدثت العرب عن ذلك، أو لم يدخلوا فتحدثت العرب عن صدِّ قريش لمن قصدوا تعظيم البيت العتيق، بعد أن كانت قريش تدَّعي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات.

وقد سعى الرسول صلى الله عليه وسلم لبيان موقفه أمام الناس جميعاً، فأرسل رسله تترى إلى قريش يعلنون مقصدهم، فأرسل خراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه فأرادت قريش قتله لولا أن منعهم الأحابيش، وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم عدل عنه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما بيَّن عمر شديد عداوته لقريش وأنها تعلم ذلك، وأن بني عدي قومه لا يحمونه، فذهب عثمان رضي الله عنه إلى قريش، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص حتى أبلغهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سمحت له قريش بالطواف فأبى أن يسبق الرسول صلى الله عليه وسلم بالطواف، وقد أخَّرته قريش فحسب المسلمون أنها قتلته، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للبيعة تحت شجرة سمرة فبايعوه جميعاً سوى الجد ابن قيس- وكان منافقاً - وكانت البيعة على الموت، وفي روايات أخرى أنهم بايعوه على ألا يفروا وليس على الموت، ولا تعارض في ذلك لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا، وأول من بادر إلى البيعة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي رضي الله عنه، ثم تتابع الأصحاب، وقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على موقف الصحابة ومبادرتهم إلى البيعة، فقال: (أنتم خير أهل الأرض)، وقال: (لا يدخل النار إن شاء الله من

أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)، ولما كان عثمان محبوساً في قريش، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: (هذه يد عثمان)، فضرب بها على يده، فقال : (هذه لعثمان)، فعُدّ في المبايعين تحت الشجرة، ولكن عثمان رجع إلى المسلمين بعد بيعة الرضوان مباشرة.

وأرسلت قريش عدداً من الرسل للتفاوض، أولهم عروة بن مسعود الثقفي، وقد لاحظ تعظيم المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما رجع إلى قريش قال: (أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً).

ثم أرسلت قريش الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم مقبلاً طلب من أصحابه أن يظهروا أمامه الإبل المشعرة، وأن يلبوا أمامه لأنه من قوم يعظمون ذلك، فلما رأى ذلك رجع إلى قريش، فقال: "رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت"، فقالوا: "أجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك".

ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص وأعقبته بسهيل بن عمرو فقال النبي صلى الله عليه وسلم متفائلاً: (لقد سهل لكم أمركم)، وقال: (لقد أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل)، وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو ألا يكون في صلحه إلا أن يرجع المسلمون دون عمرة في ذلك العام، وقد جرت مفاوضة طويلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو، وانتهت إلى عقد صلح الحديبية.

وقد وقع اختلاف في مقدمة العقد حيث أراد الرسول صلى الله عليه وسلم إعطاءه صبغة إسلامية فاعترض سهيل بن عمرو، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يكتب العقد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال سهيل: "أما الرحمن فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب"، فقال المسلمون: "والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أكتب باسمك اللهم).

ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله).

فقال سهيل: "والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أكتب محمد بن عبد الله".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب : محمد بن عبد الله)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطَّوف به).

فقال سهيل: "والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة -أي قهر-، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب".

فقال سهيل: "وعلى أن لا يأتيك منَّا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا"، قال المسلمون : "سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟"، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: "هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا لم نقض الكتاب بعد)، فقال : "والله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (فأجزه لي)، فقال: "ما أنا بمجيزه لك"، قال: (بلى فافعل)، قال: "ما أنا بفاعل".

وقد تم الاتفاق على الأمور التالية:

"على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة – أي الوفاء وصدر نقي من الغل والخداع - ، وأنه لا إسلال ولا إغلال -أي لا سرقة ولا خيانة-، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه".

فتواثبت خزاعة فقالوا: "نحن مع عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده"، وتواثبت بنو بكر فقالوا: "نحن في عقد قريش وعهدهم".

"وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت فيها ثلاث معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب".

وهكذا وقعت الهدنة لمدة عشر سنوات، على ألا يدخل المسلمون مكة إلا بعد مرور عام فيقيموا بها ثلاثة أيام معهم السيوف مغمودة فقط، ولا يقوم الطرفان بأي أعمال دعائية أو عدوانية، ويجوز للطرفين التحالف مع القبائل العربية على قدم المساواة، ويلتزم المسلمون بردِّ المسلمين الفارِّين من قريش إليها، ولا تلتزم قريش برد المسلمين الفارين إليها.

والواقع أن المسلمين تذمروا من هذه الاتفاقية وضاقوا بها ذرعاً، خاصة بعد أن جرت التعديلات على الصياغة الإسلامية للعقد، فقد اعتذر علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن مسح كلمة "رسول الله"، فأخذ الرسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فمسح ما أراد سهيل بن عمرو، وغضب المسلمون لرد المسلمين الفارِّين من قريش إليها، فقالوا: "يا رسول الله تكتب هذا؟"، قال: (نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً).

وظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فراجع الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك، قال: "فأتيت نبي الله -صلى الله عليه وسلم -فقلت: ألست نبي الله حقاً؟، قال: (بلى)، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟، قال: (بلى)، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: (إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري)، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطَّوف به؟ قال : (بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟)، قلت: لا، قال : (فإنك آتيه ومطوف به). لكن عمر رضي الله عنه لم يكتف بذلك بل أعاد الكلام أمام أبي بكر رضي الله عنه بمثل كلامه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: "يا عمر إلزم غرزه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله"، قال عمر : وأنا أشهد.

وقال عمر: "ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيراً". وكان عمر رضي الله عنه يراجع الرسول صلى الله عليه وسلم ليقف على الحكمة من موافقته على شروط الصلح، وكان يرغب في إذلال المشركين.

وكان المسلمون لا يشكُّون في دخول مكة، فلما جرى الصلح تألَّموا حتى كادوا أن يهلكوا، وخاصة عندما أعيد أبو جندل رضي الله عنه وهو يستنجد بهم ويقول: "يا معشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني"، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين

فرجاً ومخرجاً)، وكان عمر رضي الله عنه يمشي بجنب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه، لكن أبا جندل لم يفعل فأعيد.

ولا شك أن ندم عمر رضي الله عنه ومن كره الصلح إنما هو لإبداء رأي مخالف لرأي ارتضاه الرسول صلى الله عليه وسلم، مع أن ما يقرره الرسول صلى الله عليه وسلم نصّ لا مكان للرأي معه، لذلك لما علموا أنه أمر الله لم يكن منهم إلا التسليم : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة في أمرهم﴾.

ويلاحظ أن قريشاً لم تكف عن التحرش بالمسلمين خلال المفاوضات لكتابة الصلح بل وبعد إنجازه، وسواء أكان ذلك بعلم قادتها للضغط على المسلمين خلال المفاوضات، أم هو من تصرفات شبابها الطائشين، وقد احتملوا ذلك بانضباط دقيق، فقد أراد ثمانون رجلاً من أهل مكة أخذ معسكر المسلمين غرَّةً، فأُسروا وعفا عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأطلقهم، وخرج على معسكر المسلمين ثلاثون شاباً من قريش أثناء كتابة الصلح فأسرهم المسلمون، وأطلق سراحهم النبي صلى الله عليه وسلم، وحتى بعد إبرام الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين كان أربعة من المشركين يقعون بالرسول صلى الله عليه وسلم، فأخذهم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم، كما عفا عن سبعين من المشركين آخرين أسرهم المسلمون بعد إبرام الصلح، وقد نزلت في ذلك الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ولعل هذه الأحداث إضافة لتصوُّر معظم المسلمين أن في شروط الصلح إجحافاً بهم أدت إلى غضب المسلمين، حتى إذا أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ينحروا الهدي ويحلقوا رءوسهم، وكرر ذلك ثلاث مرات لم يقم منهم أحد، فكأنهم كانوا يأملون العودة عن الصلح، فلما رأوه قام - بمشورة من أم سلمة رضي الله عنها- فذبح بدنه وحلق رأسه قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حلق منهم ثلاثاً ولمن قصَّر مرة، وكان عدد ما نحره المسلمون من الإبل سبعين، كل بدنة عن سبعة.

وقد نُحِر الهدي في الحديبية في الحل، لكن بعض الهدي دخل به ناجية بن جندب رضي الله عنه منطقة الحرم فنحره، وهكذا تحلل المسلمون من عمرتهم وشرع التحلل للمحصر وأنه لا يلزمه القضاء.

ثم شرع الناس في التهيؤ للعودة إلى المدينة، بعد أن أقاموا بالحديبية عشرين يوماً، واستغرقت رحلتهم ذهاباً وإياباً شهراً ونصف الشهر.

وفي غزوة الحديبية أذن النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة - وكان محرماً بالعمرة - أن يحلق رأسه لأذى أصابه على أن يقدَّم فديه؛ يذبح شاة أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستين مسكيناً، وقد نزلت فيه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

وفيها أُذِن النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر.

وفي الغزوة نماذج من تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لمبدأ الشورى في الإسلام حيث استشار أم سلمة رضي الله عنها في أمر الناس لما لم يبادر بالنحر والحلق حين أمرهم، وأخذ برأيها.

ويستشف من غزوة الحديبية المدَّة التي يجوز فيها مهادنة الكفار عليها، ويستدل بها على جواز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلماً.

وفيها وضَّح الرسول صلى الله عليه وسلم بعض مسائل العقيدة فبيَّن كفر من يقول: (مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب)، وبين استحباب التفاؤل بقوله (سهل أمركم) لما قدم سهيل بن عمرو.

وفي الغزوة يظهر جواز التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم مثل التوضأ بماء وضوئه، وهو خاص به خلافاً لآثار الصالحين من أمته.

وحدث في طريق العودة أن نام المسلمون عن صلاة الصبح فلم يوقظهم إلا حرّ الشمس، وكان بلال بن رباح موكلاً بحراستهم فغلبه النوم، فصلّوها بعد خروج وقتها، فهي السنَّة فيمن نام عن صلاته أو نسيها.

وفي طريق العودة ظهرت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم في تكثير الطعام والماء، قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولتُ لأحرزه كم

هو؟ فحرزته كربضة العنز، ونحن أربع عشر مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثم حشونا جربنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فهل من وضوء؟) قال: فجاء رجل بأدواة له فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة".

وفي الطريق إلى المدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وقد عبَّر الرسول صلى الله عليه وسلم عن عظيم فرحته بنزولها: (أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، قال: "الحديبية"، قال أصحابه: "هنيئاً مريئاً فما لنا؟". فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وقد أسرع الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، فقال رجل: يا رسول الله: "أفتح هو؟"، قال: (نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح)، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام.

وسوف تتوالى الأحداث مؤكِّدة الحكمة البالغة والنتائج الباهرة لهذا الصلح الذي سماه الله تعالى: ﴿فَتْحًا مُبِينًا﴾، وكيف لا يكون كذلك وقد اعترفت قريش بكيانهم لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند بعد أن كانت تصورهم أمام الناس بأبشع الصور، مما كان صداه العميق في داخل مكة وأرجاء الجزيرة العربية، وأول ما يظهر في مبادرة خزاعة للتحالف مع المسلمين علناً دون هيبة قريش، وكان لهذا الموقف جذور تاريخية بعيدة، فقد كان العداء التقليدي بين خزاعة وبني بكر من كنانة، وموقف قريش المتحيز لبني بكر قد دفعها إلى محالفة عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحلف الذي أشار إليه عمرو بن سالم في قصيدته التي استنصر بها الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل الفتح بقوله: "حلف أبينا وأبيه الأتلدا".

ويلاحظ أن تعاطف خزاعة مع المسلمين كان واضحاً منذ قيام دولتهم في المدينة، حتى إعلانهم الصريح للتحالف في الحديبية، "إذ كانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة"، ولكن خزاعة كانت تخفي حقيقة تعاطفها مع المسلمين عن قريش قبل إعلان التحالف الصريح مع المسلمين، وبذلك حافظت على علاقاتها مع قريش طيلة المدة السابقة.

وكان السلام المبرم يتيح الفرصة للمسلمين للتفرغ ليهود خيبر آخر معاقل يهود التي استغلت للتحريض على المسلمين في الخندق وما بعدها.

كما أتاح الفرصة لهم لنشر الإسلام، يقول الزهري: "فما فُتِح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمِنَ الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك"، قال ابن هشام : "والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف".

وقد ظهرت حِكَمٌ أخرى لهذا الصلح فبعد أن وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاءه أبو بصير رضي الله عنه مسلماً وقد فرَّ من قريش، فأرسلت في طلبه رجلين، فسلَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما، وفي الطريق تمكَّن أبو بصير من قتل أحد الرجلين وفرَّ الثاني إلى المدينة وخلفه أبو بصير، فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم". فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال)، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وقد فهم المستضعفون من المسلمين بمكة من عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم أن أبا بصير بحاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرّون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه وغيره، حتى اجتمعت منهم عصابة، وتعرضوا لقوافل قريش التجارية يقتلون حرسها ويأخذون أموالها، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وهم بناحية العيص، فقدموا وكانوا قريباً من الستين أو السبعين.

وقصة أبي جندل وأبي بصير رضي الله عنهما وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد حتى مرّغوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية، هذه القصة نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها وفيها ما يشير إلى مبدأ "قد يسع الفرد مالا يسع الجماعة"، فقد أَلحَق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاء بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة، بل كان بوسع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأمر أبا بصير بالكف عن قوافل المشركين ابتداء أو بالعودة

إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث فكان إقراراً له، إذ كان موقف أبي بصير وأصحابه في غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم ويمنعونهم عن اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفاً فيه خلاصهم وإسناد دولتهم بأعمال تضعف اقتصاد مكة، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح.

وقد اقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على ردِّ الرجال من المسلمين الفارين من قريش بموجب الصلح، أما النساء المهاجرات فلم يردَّهن، وقد جاءته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها مهاجرة، فجاء أهلها يطلبونها، فلم يردها إليهم، لما أنزل الله فيهن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يختبرهن فإن خرجن بسبب الإسلام استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات.

وعدم ردّ المؤمنات إما لعدم دخولهنَّ في العهد أصلاً، وأنه قصد به الرجال وحدهم، كما في أحد نصوص البخاري: (وعلى أنه لا يأتيك منَّا رجل)، وإما لأن القرآن نسخ ما ورد بحقهن بالآية: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنّ﴾، وهذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك مؤمنة، وكذلك أمر المسلمون بفسخ نكاح المشركات: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

ويبدو أن إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما وهما من رجالات مكة وهجرتهما تمَّ بعد تنازل قريش عن شرط إعادة المسلمين الجدد الذين يلتحقون من مكة بالمدينة، حيث لا توجد إشارة لمطالبة قريش بهما.

وقد استمرت هدنة الحديبية نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً، ثم نقضت قريش الهدنة حيث أعانت حلفاءها بني بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين على ماء الوتير قريباً من مكة، فاستنصرت خزاعة بالمسلمين، وبذلك بطلت المعاهدة، وكان ذلك سبباً مباشراً لفتح مكة.

رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء

أتاح صلح الحديبية الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، حيث أرسل النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر، وعبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى نجاشي الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي رضي الله عنه إلى المقوقس حاكم مصر، وسليط بن عمرو العامري رضي الله عنه إلى هوذة بن علي الحنفي في اليمامة.

وقد أرَّخ المؤرخون إرسال هؤلاء الرسل في ذي الحجة سنة ٦ هـ وفي محرم من العام السابع، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كل جبار يدعوهم إلى الله، وسمَّى منهم كسرى وقيصر والنجاشي، وقال :وليس بالنجاشي الذي أسلم".

وفي مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبير عملي عن عالمية الرسالة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقد أخرج البخاري في صحيحه نص كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، وهو النص الوحيد الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء، ونصه كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾".

وقد أشار البخاري إلى إرسال كتاب النبي إلى كسرى دون أن يذكر نص الكتاب، لكنه بيّن أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل كتابه مع عبد الله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوي العبدي، وأن المنذر دفعه إلى كسرى الذي مزقه بعد أن قرأه وقد دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمزقهم الله كل

ممزق، وقد مَزَّق الله ملك كسرى فقتله ابنه واستولى على عرشه، وتمزَّقت الإمبراطورية الفارسية ثم زالت من الوجود.

وقد ثبت في صحيح مسلم إرسال كتاب النبي إلى النجاشي، وبيَّن الإمام مسلم أنه ليس بالنجاشي الذي أسلم.

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقشه : "محمد رسول الله". مما يدل على مرونة السياسة الإسلامية في الإفادة من الوسائل والرسوم المعاصرة، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة وروحها العامة.

ويلاحظ أن الكتاب الموجه لهرقل يتسم بالمحافظة على الصيغة الإسلامية حيث بدأ بالبسملة، كما يتسم بالصراحة في الدعوة إلى الإيمان بالإسلام وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لكنه بنفس الوقت يصطبغ بالحكمة والموعظة الحسنة واحترام المخاطب "عظيم الروم"، لمكانته بين قومه وترغيباً له في الإسلام، ومع الترغيب بالأجر، ذكر الترهيب من الإثم الذي يلحقه إذا حجب قومه عن الإسلام.

تأديب الأعراب

ولم تخل فترة الصلح من أحداث شغب قام بها الأعراب، لكنها لم تكن خطيرة، ولم تؤثر على تفرغ المسلمين للدعوة ونشر الإسلام من ذلك ما حدث في:

غزوة ذات القرَد

وقد وقعت قبل غزوة خيبر بثلاث ليال، وذلك حين أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على نياق للرسول صلى الله عليه وسلم، فأخذها وقتل راعيها، فلحقه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بعد ان أنذر المسلمين، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم فوجد سلمة بن الأكوع قد خلَّص النياق منهم واضطرهم للهرب، وقد انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ماء ذي قرد ورجع إلى المدينة.

عُكل وعرينة

وبعد غزوة ذي قرد قدم رجال من قبيلتي **عكل وعرينة** إلى المدينة معلنين إسلامهم، ثم طلبوا أن يسكنوا الريف لأنهم يستوخمون المدينة، فأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بنياق وراع فخرجوا إلى الحرة، فارتدّوا وقتلوا الراعي وأخذوا النياق، فأرسل إليهم بعثاً فجاءوه بهم، حيث سمرت أعينهم وقطّعت أيديهم، وتركوا في حرة حتى ماتوا، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة بعدها.

غزوة ذات الرقاع

والراجح في تاريخ الغزوة ما ذهب إليه البخاري – أنها بعد فتح خيبر-، لأَّن أبا موسى الأشعري شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة، وأبو هريرة شهدها وقد أسلم حين فتح خيبر، وذكر أبو موسى الأشعري أنها سميت بذلك لأنهم لفّوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، وكان لكل ستة بعير يتعاقبون على ركوبه.

وقد اقترب المسلمون من جموع غطفان دون أن يقع قتال بينهم، ولكن أخافوا بعضهم حتى صلى المسلمون صلاة الخوف في مكان يبعد من المدينة يومين يدعى نخلاً، ثم عادوا إلى المدينة.

وعلى أية حال فإن سقوط خيبر فسح المجال أمام المسلمين للسيطرة على المناطق الشمالية المتاخمة للشام، ويبدو أن غزوة ذات الرقاع التي اتجهت إلى غطفان - وهي القوة الثانية في المنطقة بعد يهود خيبر -كانت ضمن خطَّتهم هذه، والتي أعقبتها غزوة مؤتة في هذا الاتجاه، ولكن اهتمام المسلمين بزيارة الكعبة وأداء عمرة القضاء أخَّر إرسال جيش مؤتة قليلاً.

عمرة القضاء

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، حيث اشترطوا "ألا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها"، وقاضاهم أن يقيم بمكة ثلاثة أيام ثم يخرج عنها، وقد ذكر موسى بن عقبة أنَّ المسلمين صحبوا معهم أسلحتهم خشية من غدر قريش، وأنهم أبقوها خارج الحرم، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان فيهم الذين شهدوا الحديبية، ولما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يمشي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وطاف المسلمون بالكعبة، وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُظهروا القوة والجَلَد في طوافهم، لأن قريشاً أشاعت أنهم ضعفاء، قد وهنتهم حمى يثرب، فأرملوا وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى، وكانت قريش قد تركت مكة إلى جبل قعيقعان تنظر إليهم يطوفون ويتعجبون من قوتهم، وقعيقعان يواجه ما بين الركنين من الكعبة.

ولما انتهت الأيام الثلاثة جاء المشركون إلى عليٍّ رضي الله عنه فقالوا: "قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل"، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أنزل الله في عمرة القضاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ

شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ومن الأحكام المتعلقة بالرضاعة قصة عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب حيث لحقت وهي طفلة بالرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكة فأخذها ودفعها لفاطمة رضي الله عنها، وهي ابنة عم أبيها، فاختصم فيها زيد بن حارثة لأخوّته لحمزة (بالمؤاخاة) وجعفر بن أبي طالب لأن خالتها زوجه، وعلي بن أبي طالب، فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال: (الخالة بمنزلة الأم).

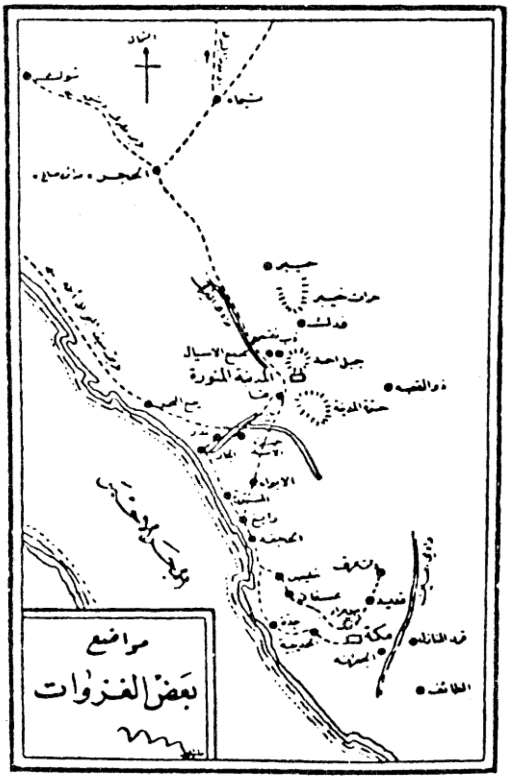

من كتاب «الرسول القائد» لمحمود شيت خطاب

غزوة مؤتة

وقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد عودته من عمرة القضاء بقية شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول والثاني، وفي جمادي الأولى بعث جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى الشام، وعيَّن زيد بن حارثة رضي الله عنه أميراً عليه، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن أصيب فعبد الله بن أبي رواحة رضي الله عنه، مما يدل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب، وهذه هي المرة الأولى التي يتَّخذ فيها مثل هذا الاحتياط، وربما كان متوقعاً أن تحفّ الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالأمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً.

وقد وصل الجيش إلى معان عندما وصلته أخبار نزول هرقل بأرض مآب - وهي البلقاء- في مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب لخم وجذام وقضاعة، فأمضى المسلمون ليلتين في معان يتشاورون في أمرهم وبعضهم يرى مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم وإخباره بقوة العدو ليمدَّهم أو يأمرهم بأمره، فشجَّع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الجيش، وقالْ: (يا قوم والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة).

وأحدثت كلماته أثرها فدبَّ الحماس في الجيش، وفقدت آراء المتريثين قوتها، فاندفع زيد بن حارثة رضي الله عنه بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك بيسير، حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجَّل فيها القادة الثلاثة بطولات عظيمة انتهت باستشهادهم، فشاط زيد بن حارثة رضي الله عنه في رماح الروم فاستشهد، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فعقر فرسه الشقراء وقاتل بالراية فقطعت يمينه فأمسكها بشمال فقطعت فاحتضن الراية حتى استشهد، فأخذ الراية عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه فتردد يسيراً ثم اندفع فقاتل حتى استشهد، فأخذ الراية ثابت بن أرقم رضي الله عنه ونادى في المسلمين أن يختاروا لهم قائداً فاختاروا خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد أدرك خالد خطورة الموقف فأعاد تنظيم جيشه وبدَّل المسيرة بالميمنة وجعل قسماً من الجيش يتقدمون من الخلف وكأنَّهم أمداد جديدة لإيهام الروم، وتمكَّن خلال ذلك من القيام بانسحاب منظَّم لم يُفقده إلا اليسير من جنده حيث سمَّت المصادر ثلاثة عشر شهيداً فقط.

ويعتبر هذا الانسحاب المنظَّم الناجح فتحاً عظيماً حيث تمكن خالد رضي الله عنه من إنقاذ جيشه بخسائر طفيفة، مع الإثخان في الروم وإصابتهم بقتلى وجرحى، ولا شك أن استبسال المسلمين في القتال وشجاعتهم النادرة وحرصهم على الشهادة بالإضافة إلى عبقرية خالد العسكرية هو الذي مكَّنهم بعون الله من الخلاص من المأزق.

لقد وُجِد في جسد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أكثر من تسعين إصابة بالرماح والسهام، وما أقعده ذلك عن القتال حتى الرمق الأخير!!

وقد انكسرت تسعة أسياف في يد خالد بن الوليد.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه أخبر أصحابه باستشهاد القادة الثلاثة وعيناه تذرفان بالدموع قبل أن يأتيه الرسول بالخبر، وأخبرهم باستلام خالد للراية وبشرهم بالفتح على يديه، والمراد بالفتح في هذا الحديث الصحيح إما الانسحاب المنظم الناجح، وإما ما أوقعه المسلمون بالروم من خسائر رغم تفوقهم العددي الكبير.

ورغم نجاح الانسحاب، فقد صاح الناس في وجوههم- وهم يحثون في وجوههم التراب- "يافرار فررتم في سبيل الله!!" ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليسوا بالفرار ولكنَّهم الكرار إن شاء الله)، وقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام مكانة شهداء مؤتة عند الله تعالى بقوله: (ما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا)، أي: لما نالهم من عظيم التكريم، وجيء بأبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فداعبهم وأمر بحلق رءوسهم ودعا لهم، وقال لأمهم وهي تذكر يتمهم: (العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة)، ولا شك أن المسلمين أفادوا دروساً وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم، حيث تعرَّفوا على قوتهم وعددهم وأساليب قتالهم وخططهم وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها.

غزوة ذات السلاسل

ولم تمض سوى أيام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتى جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قضاعة التي غرّها ما حدث في مؤتة التي اشتركت فيها إلى جانب الروم، فتجمعت تريد الدنو من المدينة، فتقدم عمرو بن العاص رضي الله عنه في ديارها ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بليّ وعذرة وبلقين عليها، وقد بلغ عمرو بن العاص أن جموعها كبيرة، فاستمدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم فأمدَّه بمائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وعليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

وقد توغَّل الجيش في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت، وقد أعادت هذه الحملة الهيبة للمسلمين في هذه المنطقة، تلك الهيبة التي كانت أحداث غزوة مؤتة قد زعزعتها.

وفيها صلى عمرو بن العاص بالمسلمين بعد أن تيمم من الجنابة حيث خاف على نفسه المرض إذا اغتسل بسبب البرد، وقد أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم اجتهاده حين بلغه.

ويدل تأمير عمرو بن العاص على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية.

وإذا كانت حملات المسلمين العسكرية قد اتجهت نحو الشمال منذ صلح الحديبية الذي أوقف حملاتهم نحو الغرب والجنوب الغربي حيث تقبع مكة آمنة في ظلال الصلح، فإن ذلك لم يدم طويلاً حيث لم تقدّر قريش نعمة الأمن والسلم، فبادرت إلى نقض الصلح مما أدى إلى عودة النشاط الإسلامي العسكري إلى سابق عهده نحو مكة وما حولها.

فتح مكة

لقد ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت بالخيل والسلاح والرجال حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين، فأوقعوا بها الخسائر على ماء بأرض خزاعة يدعى الوتير، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة فأنشد أبياتاً من الشعر أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يستنصره، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (نصرت يا عمرو بن سالم)، ويذكر الواقدي أن قتلى خزاعة بلغوا عشرين رجلاً.

وتصرّف قريش هذا نقض صريح لمعاهدة الحديبية، وعدوان سافر على حلفاء المسلمين، وقد أدركت قريش خطورة الموقف، وتشير بعض الروايات إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلى قريش يخيّرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بكر أو القتال فاختارت القتال، ثم ندمت وأرسلت أبا سفيان إلى المدينة يطلب تجديد المعاهدة، لكنه فشل في الحصول على وعد بتجديد المعاهدة.

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتجهز للغزو ولم يعلمهم بوجهته، وحرص على السرية لئلا تستعد قريش للقتال، وقد استنفر القبائل التي حول المدينة : أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، وقد بلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وأوعب مع رسول الله المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد، مما يدل على طاقة المسلمين العليا في حشد الجيوش في هذه المرحلة، وكان في الجيش ألف من مزينة وألف من سليم (أو سبعمائة)، ، وقدَّمت قبيلتي الأنصار أربعة آلاف مقاتل، وهذا العدد الكبير يدل على تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة.

وقد أرسل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه- وهو صحابي بدري- كتاباً إلى قريش يخبرها بأن المسلمين يريدون غزوها، وحملت الكتاب امرأة عجوز، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والزبير والمقداد رضي الله عنهم، فأمسكوا المرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب، فسلمته لهم: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا حاطب ما هذا؟) قال: "يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، يقول :كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين، من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد

الإسلام"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أنّه قد صدقكم)، فقال عمر : "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال: (إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال :اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، فأنزل الله السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وفي حادثة حاطب هذه تظهر معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بأمر المرأة وكتاب حاطب الذي أرسله معها، وفيها حكم الجاسوس وجواز هتك ستره، وأنه بارتكابه هذه الكبيرة لا يكفر.

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة في رمضان سنة ثمان للهجرة، وكان المسلمون صياماً حتى بلغوا كديداً - وهي عين جارية تبعد عن مكة ٨٦ كيلاً، وبينها وبين المدينة ٣٠١ كيل – فأفطروا.

وقد استخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه.

وقد وصل الجيش الإسلامي إلى مر الظهران دون أن تعلم قريش بتحركه، وكان خروجه من المدينة لعشر خلون من رمضان، ووقع اختلاف في تاريخ الفتح ما بين ثلاث عشرة وست عشرة وسبع عشرة وثماني عشرة من رمضان واتفقوا أنه في رمضان سنة ثمان.

وفي طريق المسلمين إلى مكة قدم بعض زعماء المشركين، فأعلنوا إسلامهم، ففي الأبواء قدم أبو سفيان بن الحارث أخو الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، رضي الله عنهما، فأسلما، وكانا شديدين في معاداة الإسلام، فكان أبو سفيان بن الحارث يهجو المسلمين ويقاتلهم في سائر الحروب عشرين سنة حتى قذف الله في قلبه الإسلام، وحسن إسلامه فكان أحد الذين صمدوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين فر الناس، وكان عبد الله بن أبي أمية رضي الله عنه شديد العداوة للمسلمين وهو أخو أم سلمة -أم المؤمنين- لأبيها، وقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بين السقيا والعرج على طريق (المدينة – مكة)، فأسلم وحسن إسلامه فشهد فتح مكة واستشهد في حصار الطائف.

وفي الجحفة - قرب رابغ الآن- قدم العباس بن عبد الطلب رضي الله عنه على الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجراً، وكان العباس قد أسلم قبل فتح خيبر، ولا شك أن العباس قدَّم خدمات جليلة للإسلام قبل دخوله فيه، فقد كان يوافي الرسول صلى الله عليه وسلم بأخبار قريش، وكان ملاذاً للمسلمين المستضعفين بمكة.

وفي مر الظهران عسكر المسلمون وعميت أخبارهم عن قريش فخرج أبو سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي يتحسسون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم أن يخرجوا لمصالحة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل عليهم مكة، وكان أبو سفيان وصاحباه يتناقشون بينهم في أمر الجيش المعسكر بمر الظهران وقد ظنه بعضهم خزاعة، مما يدل على نجاح المسلمين في كتمان خبر تقدّمهم إلى مكة، فلما أخبرهم العباس رضي الله عنه بأنه جيش المسلمين، سألوه عن رأيه، فطلب من أبي سفيان أن يمضي معه وبجواره إلى معسكر المسلمين، فوافق، وقابل الاثنان الرسول صلى الله عليه وسلم، فدعا أبا سفيان للإسلام فتلطف في الكلام وتردد في الإسلام فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بأن يأخذه إلى خيمته ويحضره في صباح اليوم التالي، ففعل وأسلم أبو سفيان في اليوم التالي، وأطلعه العباس على قوة المسلمين حيث استعرض الجيش أمامه، فأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً"، فقال العباس : "ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة"، قال : "فنعم إذاً".

ومضى أبو سفيان رضي الله عنه إلى مكة فأخبر قريشاً بقوة المسلمين ونهاهم عن المقاومة.

وكان سعد بن عبادة رضي الله عنه يحمل راية الأنصار عند استعراض الجيش فقال لما مر بأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فاشتكى أبو سفيان للرسول صلى الله عليه وسلم من قولة سعد، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبة)، وأخذ الراية من سعد بن عبادة رضي الله عنه فدفعها إلى ابنه قيس رضي الله عنه، ثم كلَّم سعد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الراية من ابنه قيس مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه.

وفي مر الظهران قرَّر النبي صلى الله عليه وسلم الزحف على مكة، فعيَّن القادة وقسَّم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى والزبير بن العوام على المجبنة اليسرى، وأبو عبيدة على الرجالة، وكانت راية الرسول صلى الله عليه وسلم سوداء ولواؤه أبيض.

وقد جمعت قريش جموعاً من قبائل شتى ومن أتباعها لحرب المسلمين، وقصدت من ذلك أن تحمي أنفسها فإن أحرزوا نصراً أعانتهم وإلا صالحت المسلمين، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتالهم ودخلت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها من جهة كداء ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من أسفلها، وكانت مقاومة القرشيين يسيرة، حيث ذكر ابن إسحق أن عدد قتلى المسلمين في الخندمة حيث التحم خالد بن الوليد رضي الله عنه مع بعض المشركين في قتال بلغ ثلاثة من الفرسان في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلاً، وذكر موسى بن عقبة أن قتلى المشركين بلغوا قريباً من أربعة وعشرين، وقال أبو سفيان للرسول صلى الله عليه وسلم: (يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم)، مما يشير إلى كثرة القتلى، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) ، فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق آخرون أبوابهم.

وقد خشي الأنصار أن يكون الأمان الذي أعطي لقريش دليلاً على رأفة النبي صلى الله عليه وسلم بقومه ورغبة في البقاء بمكة فطمأنهم الرسول بقوله: (المحيا محياكم والممات مماتكم).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم، وأعلن الأمان للناس سوى أربعة رجال وامرأتين أباح دماءهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة وهم: عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبدالله بن سعيد بن أبي سرح.

وقد قتل عبد الله بن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة وقتل مقيس بن صبابة في سوق مكة، وتمكن عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن سعد بن أبي سرح من الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعلنا إسلامهما وحقنا بذلك دمهما.

وقد جمع الحافظ ابن حجر أسماء الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم من مفرقات الأخبار فبلغ عدد الرجال تسعة وعدد النساء ثماني، وهؤلاء الذين أهدرت دماؤهم

كانوا ممن ألحق الأذى الشديد بالمسلمين، فكان في إهدار دمهم عبرة لمن تسول له نفسه الظلم والطغيان على أمل أن ينجو من العقاب طمعاً في رحمة الإسلام وطيبة أتباعه.

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من فتح مكة حتى العصر، وذلك لما كان من غدر بني بكر بخزاعة قبل الفتح رغم دخولها في صلح الحديبية.

فلما كان العصر أعلن وقف أي قتال بمكة وأوضح حرمتها، فلما قتلت خزاعة رجلاً تطلبه بثأر وداه الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيَّن أن من قتل بعد ذلك قتيلاً فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية.

وأما عامة أهل مكة فقد نالهم عفو عام رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم فقال : (ما تظنون أني فاعل بكم ؟)، فقالوا : "خيراً أخ كريم وابن أخ كريم"، فقال : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)، وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

فاختار الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعفو عنهم ويصبر على ما كان منهم ويدع عقوبتهم تفضلاً منه واحتسابًا فقال : (نصبر ولا نعاقب).

وقد ترتَّب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى.

ولم ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته بمكة بل ضربت له قبة في الحجون - في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين -وقال عندما سأله أسامة بن زيد رضي الله عنه إن كان سينزل في بيته: (وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور ؟)، وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها.

ولم يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة دخول الفاتحين المتغطرسين، بل كان خاشعاً لله شاكراً لأنعمه يقرأ سورة الفتح ويرجّع في قراءتها، وهو على راحلته، بل إنه لما طاف بالكعبة استلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين وتعليماً لأمَّته.

وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم حرمة مكة وأنها لا تغزى بعد الفتح، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام منها، وشارك في ذلك بيده فكان يهوي بقوسه إليها، فتساقط وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وكانت ستين وثلاثمائة من الأنصاب، ولطخ بالزعفران صور إبراهيم وإسماعيل وإسحق وهم يستقسمون بالأزلام وكانت هذه الصور داخل الكعبة، وقال: (قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام)، وفي رواية أن صورة مريم كانت داخل الكعبة أيضاً، ولم يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة إلا بعد أن محيت هذه الصور منها، ثم دخلها فصلى فيها ركعتين، وكانت مبنيَّة على ستة أعمدة متوازية، وقد جعل باب الكعبة خلف ظهره، ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة، وكانت الحجابة في بني شيبة في الجاهلية فأبقاها بأيديهم، ثم استلم الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود وطاف بالبيت مهللاً مكبراً ذاكراً شاكراً، وكان غير محرم وعلى رأسه المغفر ثم لبس عمامة سوداء مما يدل على جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد حجاً ولا عمرة.

وهكذا تم تطهير البيت العتيق من مظاهر الوثنية وأوضار الجاهلية ليعود كما أراد له الله تعالى وكما قصد ببنائه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مكانا لعبادة الله وتوحيده.

ولا شك أن تطهير البيت من الأصنام كان أكبر ضربة للوثنية في أرجاء الجزيرة العربية، حيث كانت الكعبة أعظم مراكزها، وما أن تمّ فتح مكة وطُهِّرت الكعبة حتى أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى نخلة لهدم العزى التي كانت مضر جميعاً تعظمها فهدمها، وأرسل عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سواع صنم هذيل فهدمه، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه إلى مناة بالمشلل، ناحية قديد على طريق مكة - المدينة فهدمها، وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية حيث ذكرها القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾.

وفي فتح مكة نزلت سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقد كان العرب تنتظر نهاية الصراع بين المسلمين وقريش، فلما كان الفتح أقبلت بجموعها وبادرت لإعلان

إسلامها، قال عمرو بن سلمة الجرمي: وكانت العرب تلوّم بإسلامها الفتح يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وعقّب ابن إسحق على حادثة الفتح بقوله: "فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل أفواجاً يضربون إليه من كل وجه".

وقد خطب الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة عدة خطب بيَّن في الخطبة الأولى- وكانت على باب الكعبة- دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثأراتها واستثنى سقاية الحاج وسدنة البيت فاستبقاهما.

وأعلن في الخطبة الثانية إبطال أحلاف الجاهلية إلا ما كان من المعاقدة على الخير ونصرة الحقّ وصلة الأرحام.

ثم أعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها وتحريم القتال فيها، وبيَّن أن الله تعالى أحلها له ساعة وقت الفتح، وأوضح أن لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية، فلم تعدّ الهجرة من مكة إلى المدينة واجباً، وإن بقي حكمها من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام إلى يوم القيامة، فقد شرعت الهجرة إلى المدينة ليعبد المسلمون ربهم بأمان، وليقوى كيان الإسلام بالمدينة أمام خصومه، وليتمكنوا من حماية الدولة ثم توسيع رقعتها عن طريق الجهاد، والهجرة بعد فتح مكة لم تعد ضرورة فقد قوي كيان الإسلام وصار وجود المسلمين في ديارهم أجدى لإقامة شعائر الإسلام ونشر هداه في سائر الأرجاء، وأما الجهاد فباق إلى يوم القيامة، ولذلك بايع النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد ولم يبايعهم على الهجرة، وقد بيَّن ابن عمر رضي الله عنه ذلك بقوله: "انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار"، أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه.

وأوضح في الخطبة الرابعة أن من قتل له قتيل فيخير بين أخذ الدية أو القصاص.

وقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية خلال فتح مكة، من ذلك جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، حيث صام الرسول صلى الله عليه وسلم في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديداً فأفطر.

ومن ذلك إقرار أمان النساء وجوارهن حيث أجارت أم هاني رجلين من أحمائها، فأمضى الرسول صلى الله عليه وسلم جوارها، وقد أجمع أهل العلم على أن أمان المرأة جائز.

ومن ذلك تحريم نكاح المتعة بعد إجازته ثلاثة أيام فقط ثم صار حراماً إلى الأبد، كما ذكر النووي في شرح مسلم.

وحكم نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله كما حدث لصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وقد اعتبر عقد النكاح قائماً بينهما وبين زوجتيهما.

وفيه إقرار مبدأ المساواة بين الناس أمام أحكام الشريعة، وتحذير للحكام من أن يقيموا الحدود على الضعفاء دون الأقوياء الذين يحاولون تخطي الأحكام، ولا شك أن بقاء الدول واستقرار المجتمعات منوط بالدرجة الأولى بإقرار العدالة، وإنما يجد خصوم الدولة السبيل إلى هدمها من خلال الظلم الذي يقع منها، فهو مبرر لاجتماع المظلومين وحافز للتضحية من أجل إسقاطها.

ونتيجة لفتح مكة تحول ثقل معسكر الشرك من قريش إلى قبيلتي هوازن وثقيف اللتين سارعتا لملء الفراغ وقيادة المشركين لحرب الإسلام فكانت غزوة حنين وحصار الطائف.

ويؤرخ ابن إسحاق سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه في أعقاب فتح مكة، حيث أحرق ذا الكفّين صنم عمرو بن حُمَمَة.

غزوة حنين

هوازن قبيلة عربية مشهورة من عرب الشمال، فهي مضرية عدنانية تفرعت منها فروع كثيرة منها ثقيف، وقد استقرت ثقيف في مدينة الطائف الحصينة وما حولها، في حين انتشرت بطون هوازن الأخرى في تهامة على ساحل البحر الأحمر من حدود بلاد الشام الجنوبية إلى حدود اليمن الشمالية.

وفي ديار ثقيف كانت تقام أسواق العرب في الجاهلية منها سوق عكاظ الشهير بين نخلة والطائف، حيث تتم البيوع والمقايضات التجارية، وتعقد الندوات الأدبية والشعرية، ومنها سوق ذي المجاز ، وسوق مَجَنَّة بمر الظهران التي تبعد عن الطائف، وتقرب من مكة.

ولا شك أن الثقفيين كانوا يستفيدون فوائد عظيمة من أسواق العرب هذه سواء في تجارتهم وتصريف نتاجهم الزراعي حيث يمتلكون بساتين الأعناب والرمان والخضراوات، أو في رقيهم الأدبي وتفتّح مداركهم حيث التلاقح الثقافي في هذه اللقاءات الموسمية المنظمة، وحيث يقومون بالوساطة في التجارة الخارجية بين الشام واليمن من ناحية وسكان البوادي من ناحية أخرى.

وقد تشابكت مصالح ثقيف وهوازن مع مصالح قريش تشابكاً وثيقاً بحكم الجوار، فمكة والطائف قريبتان من بعضهما بينهما تسعون كيلاً فقط، وكان القرشيون يصطافون بالطائف، ويمتلكون فيها البساتين والدور حتى سميت الطائف "بستان قريش"، وقد وطَّد هذه العلاقات ما كان بين قريش وهوازن من صلات نسبية قديمة توثَّقها المصاهرات المتجددة فكلاهما من مضر، ولهذه الصلات نجد أن عروة بن مسعود الثقفي كان رسولاً لقريش إلى المسلمين في الحديبية.

فلا غرابة وقد تشابكت علاقة قريش وهوازن بهذا الوثوق أن تقف هوازن مع قريش في صراعها ضد المسلمين منذ المرحلة المكية، وأن يئول إليها حمل الراية ضد الإسلام بعد فتح مكة لتملأ الفراغ إثر سقوط زعامة قريش لمعسكر الشرك في الجزيرة العربية.

فمنذ أن لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثقيف في الطائف يدعوهم بدعوة الإسلام، أبوا إلا أن يُظهروا العداء الصريح وأمروا صبيانهم فرشقوه بالحجارة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية إسلام ثقيف، لمكانتها العسكرية والاقتصادية، ولعلاقاتها الوثيقة بقريش، وقد سعى إلى دعوة زعمائها للإسلام حتى بعد إخفاق رحلته إلى ثقيف، فالتقى بالعقبة وهو يعرض نفسه على زعماء القبائل بابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبه إلى الإسلام مما أهمَّه حتى انطلق بعيداً عن مكة لا يتعرف في طريقه إلى داره لفرط الهم.

وقد وقفت هوازن بعيداً عن الصراع الذي احتدم بين قريش والمسلمين بعد الهجرة، ولعلها كانت تظن أن قريشاً تكفيها، وظلَّت ترقب المعارك في بدر وأحد والخندق دون أن تحرك ساكناً، بل إن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقنعها بالرجوع عن المشاركة ببدر ما دامت تجاراتها قد سلمت، وكان عروة بن مسعود الثقفي يطلب من قريش قبول الخطة التي عرضها عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، ولكن هذه المواقف الفردية تعبر عن حكمة بعض الثقفيين فقط، ولا تعبر عن موقف مسالم لثقيف وهوازن.

ويبدو أن عدم اشتراك ثقيف في الأحداث التي جرت حتى فتح مكة يرجع إلى اعتمادها على قريش وضعف تصورها لحقيقة القوة الإسلامية، وليس معنى ذلك أن هوازن لم تشعر قط بخطر المسلمين قبيل فتح مكة، فقد كان موقف قريش مشعراً بضعفها أمام المسلمين منذ اعترافها بهم ومعاهدتها معهم في الحديبية، واستمر موقفها يضعف مع الأيام ويعلو صوت الإسلام، وكانت معنوية قريش ضعيفة وقت فتح مكة، فلا شك أن جيرانها الثقفيين كانوا على قدر من الوعي بذلك، وكان بعض رجالهم قريباً من الأحداث، ولعل عدم نجدة هوازن وثقيف لقريش يرجع إلى نجاح المسلمين في كتمان هدف تحركهم، كما كانت هوازن تخشى على ديارها منهم، لذلك لم تبادر للدفاع عن مكة، ويشير الواقدي إلى أنهم أرسلوا عيناً لهم لمعرفة إن كان المسلمون سيتوجهون إلى قريش أم هوازن، بل إن هوازن اتخذت موقف الاستعداد للمواجهة بجمع جموعها منذ أن تحرك المسلمون من المدينة، وقد تصورت أنها المقصودة، وأعان على هذا التصور غموض موقف المسلمين من مصير صلح الحديبية.

فلما فتحت مكة وسقطت الزعامة القريشية، حملت هوازن راية الشرك، وتحركت بسرعة لمواجهة الموقف خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوقف نشاط المسلمين العسكري بعد الفتح، بل أرسل السرايا منها سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه بثلاثين فارس نحو نخلة لهدم العزى فهدمها، وكانت بيتاً تعظمه العرب وهي من ديار ثقيف، وكذلك أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة خالد بن الوليد في شهر شوال من سنة ثمان للهجرة تضم ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة في

يلملم جنوب مكة بثلاثين كيلاً، داعيا لهم إلى الإسلام، فلما وصلهم دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فقتل منهم وأسر، ثم أمر بعد حين بقتل الأسرى، وقد توقف عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف وبعض الصحابة رضي الله عنهم عن قتل الأسرى، حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم الذي تبرأ مما صنع خالد مرتين.

لقد تأوَّل خالد بن الوليد رضي الله عنه قولهم "صبأنا "بأنهم لا يريدون إعلان إسلامهم أو أنهم ينتقصون الإسلام بذلك فلم يحقن دماءهم، ورأى عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنهم عبَّروا عن إسلامهم بما يعرفون، ولم تكن المصطلحات الشرعية قد اتضحت لسائر العرب آنذاك، لذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم وإن تبرأ من فعل خالد لعجلته وعدم تثبته فإنه لم يعاقبه ولم يعزله عن إمارة جنده، وإن أعظم ما يبرىء ساحة خالد ويفيد أنه اجتهد فأخطأ هو عدم معاقبة الرسول صلى الله عليه وسلم له واكتفاؤه بالبراءة من عمله.

وعلى أية حال فإن اثنتين من سرايا المسلمين كانت في ديار هوازن وثقيف، ولم تكن هذه السرايا لتخفى على هوازن التي بدأت تحشد قواها في حنين بعد نصف شهر فقط من فتح مكة لمواجهة المسلمين، وقد عزمت على مهاجمة المسلمين قبل أن يهاجموها، ومما يدل على أنهم أرادوها موقعة فاصلة حشدُهُم للأموال والنساء والأبناء، حتى لا يفر أحد دون ماله وأهله، وكان يقودهم مالك بن عوف النصري، وقد انضمت إلى هوازن بعض القبائل الأخرى من غطفان وغيرها.

ويلاحظ أن مالك بن عوف رتَّب قومه بشكل صفوف حسنة، الخيل ثم الرجالة ثم النساء ثم الغنم ثم الإبل، وكان مالك النصري في الثلاثين من عمره، وقد عرف بالشجاعة وحسن البلاء في القتال، وقد وردت روايات تبيّن أن دريد بن الصَّمة أنكر على مالك النصري الخروج بالنساء والأطفال والأموال لأن المنهزم لا يردُّه شئ- في رأيه- لكن مالك النصري لم يعمل برأيه، وقد انفرد الواقدي بتقدير عدد جيش هوازن فذكر انهم عشرون ألفاً، وقد مال الحافظ ابن حجر إلى قبول هذا التقدير فقال إنهم كانوا ضعف عدد المسلمين وأكثر.

وقد أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم فمكث فيهم يوماً أو يومين، ثم عاد إلى المسلمين بخبرهم، فأخذ المسلمون أهبتهم واستعدوا لمواجهتهم.

واستعار النبي صلى الله عليه وسلم مائة درع من صفوان بن أمية، وكان لا يزال على الشرك، وقد سأله صفوان إن كان يأخذها غصباً أم عارية؟ فأخبره أنها عارية، وقد أعادها إليه بعد غزوة حنين شاكراً له صنيعه، ولا مانع من استعانته بصفوان وهو مشرك، وخاصة أن كيان الإسلام كان راسخاً، وأن صبغة المعركة الإسلامية لا يؤثر فيها قبول معونة من سواهم، ما دامت لا تفرض عليهم شروطاً تخلّ بالتزاماتهم العقدية.

ولم يطل استعداد المسلمين فإن الجيش الذي فتح مكة لم يلق من الجهد والقتال سوى مناوشات يسيرة في الخندمة، فكان على استعداد لمواجهة هوازن، وخلال أيام تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال – وقد مضى على مقامه بمكة بعد الفتح خمس عشرة ليلة وكان فتحها في التاسع عشر من رمضان- ووصلوا إلى حنين في مساء العاشر من شوال، ويبدو من ذلك أنهم كلما اقتربوا من حنين ساروا ببطء وحذر فإنها لا تبعد عن مكة سوى عشرين كيلاً شرقي مكة وتعرف الآن بالشرائع، أما في أول خروجهم من مكة فقط مضوا مسرعين، وقد استخلف الرسول صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد رضي الله عنه أميراً على مكة عند خروجه، وكان عدد جيش المسلمين كبيراً إذا قورن بسائر الغزوات السابقة فقد انضم إلى الجيش الذي فتح مكة -وعدده عشرة آلاف مقاتل - ألفان من أهل مكة من مسلمة الفتح الذين سمُّوا بالطلقاء، ولذلك تعتبر غزوة حنين أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في عصر السيرة ومن أكثرها خطورة.

وقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بحراسة جيشه حتى إذا حضرتهم صلاة العشاء وهم قريبون من العدو أمر أحد الصحابة بمراقبة عدوهم من أحد الجبال المطلة على وادي حنين، وقد عبَّر عن ثقته الكبيرة بربِّه وبنصره عندما أخبره الصحابي بما رأى من جموع هوازن وأموالها بقوله: (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله)، ثم تطوع أنس بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه بحراسة المسلمين حيث ناموا في المكان، وأوصاه ألا يغفل عن الحراسة حتى الفجر، وقد أدى أنس مهمته خير أداء فوعده النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة.

لقد كان لوجود الطلقاء في جيش المسلمين آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتخلصوا من كل الرواسب الجاهلية المستقرة في أعماقهم وحياتهم، حتى إذا رأى بعضهم في الطريق إلى حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم قالوا: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟"، فقال: (سبحان الله، كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبنّ سنة من قبلكم).

ولا شك أن طلبهم يعبِّر عن عدم وضوح تصوّرهم للتوحيد الخالص، رغم إسلامهم لكن النبي صلى الله عليه وسلم أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك وحذَّرهم من ذلك، ولم يعاقبهم أو يعنّفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام.

ومن تلك الآثار السلبية ما أصاب المسلمين من إعجاب بكثرتهم حتى ردَّ أحدهم، ما سيحوزونه من نصر إلى أنهم "لن يغلبوا من قلة"، وعبَّر عن ذلك جهرة، في حين أصاب هذا الشعور آخرين سواه حتى استحقوا معاتبة القرآن الكريم لهم، وتذكيرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾، وقد انتبه الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر، فأكَّد لهم بدعائه افتقاره لربه ولجوءه إليه وحده، فقال: (اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل)، وحكى لهم قصة نبي أعجبته كثرة أمته فسلط الله عليهم الموت، وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يراقب المسلمين، ويقوِّم ما يظهر من انحرافات في التصور أو السلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة، لأن النصر معلق بشرط: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، ولكن هل تتم تربية الجموع وإزالة رواسب الجاهلية التي عاشوا فيها أعمارهم بين عشية وضحاها، لقد كان الشعور بالزهوّ لكثرتهم سبباً لإدبارهم في أول المواجهة، وكان إدبارهم وهول اللقاء قد أعادهم إلى التصور الصحيح والتوكل الخالص، فكانت الجولة الثانية خالصة لهم من دون الكافرين.

ومن الآثار السلبية لوجود الطلقاء وبعض الأعراب في جيش المسلمين، أن معظمهم خرجوا للحصول على الغنائم والنظر لمن تكون الغلبة، فلم يشعروا أنهم يدافعون عن قضية ومبدأ، إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتذوقوا طعم الإيمان ولا حب الجهاد في سبيل الله وكان منهم المقيم على الكفر - ومنهم بالطبع من كان حسن الإسلام- فلا غرابة أن ينهالوا على الغنائم، في بدء المعركة وينشغلوا بها، ويشغلوا سواهم من الجند معهم، ولم يكن مصير المعركة يهمّ بعضهم كثيراً، فقد عبَّر أحدهم عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، فقال كلدة بن أمية - أخو صفوان بن أمية الجمحي-: "ألا بطل السحر اليوم!!"، فقال له صفوان - وكان مشركاً آنذاك- : "اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن".

المعركة

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم محكمة تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر، وكانت معنويات هوازن عالية، فقد أوضح لهم قائدهم مالك النصري ان المسلمين لم يلقوا مثلهم من قبل من حيث معرفتهم بالحرب وشجاعتهم وكثرتهم العددية، وقد تقدم المسلمون في الوادي قبل انبلاج الفجر، تتقدمهم الخيالة بقيادة خالد بن الوليد، وفي طليعتها بنو سليم، ثم بقية الجيش بشكل صفوف منتظمة.

وفي بداية القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين تاركين بعض الغنائم التي أقبل على جمعها الجند، وكأنهم حسبوا أن هوازن قد هزمت هزيمةً نهائيةً، ولكن هوازن فاجأتهم بالسهام الكثيفة تنهال عليهم من جنبات الوادي، وكان بعض المسلمين قد تعجلوا بالخروج دون استكمال عدة القتال، فكان بعضهم حاسري الرءوس، والبعض الآخر من الشبَّان لم يحملوا معهم السلاح الكافي، ولم يحسبوا للأمر حسابه، وأمام هول المفاجأة ودقّة الرماة من هوازن حتى "ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوه رشقاً ما يكادون يخطئون"، كما وصفهم البراء بن عازب أحد شهود المعركة من الصحابة - فانكشفت خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفر الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى لم يصمد مع الرسول صلى الله عليه وسلم سوى فئة قليلة صمدت بصموده.

لقد استمر القتال في هذه الجولة الأولى من الفجر إلى العشاء ثم طيلة الليل ثم انكشف المسلمون وأدبروا، وكان الحر خلال النهار شديداً فكان المسلمون يأوون قبل المعركة إلى ظلال الأشجار في النهار، أما في وقت المعركة فكانوا معرضين للشمس الملتهبة، وكانت الأرض رملية فكان الغبار يرتفع في وجوههم، فيحد من قدرة المقاتلين على الرؤية كما عبر أحدهم: "فما منا أحد يبصر كفَّه"، في حين استفادت هوازن من كمائنها في المنعطفات والشعاب.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يركب بغلته "دلدل" رغم امتلاكه للخيل، وبذلك يرسخ في أذهان المسلمين فكرة الصمود، فالبغلة لا تصلح للكر والفر ولا للإدبار خلافاً للخيل، وكان الرسول ينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم للثبات وهو يدفع بغلته للأمام، ويقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)، والعباس عمه وأبو سفيان بن الحارث يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به خلال العدو، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيراً، في حين ابتعد

معظمهم عن الميدان مدبرين ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة، كانوا يحيطون به فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس - وكان جهوري الصوت - فنادى الناس للعودة، ثم خص الأنصار وأصحاب الشجرة بالنداء، ثم خص بني الحارث بن الخزرج بالنداء، فتلاحقوا نحوه حتى صاروا ثمانين أو مائة، فقاتلوا هوازن، وبدأوا جولة جديدة مليئة بالشجاعة والصدق والعزيمة والإيمان وحسن التوكل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله ويسأله النصر، يقول: (إنك إن تشأ لا تعبد بعد اليوم)، حتى إذا غشيه الأعداء نزل عن بغلته وترجل، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته، فلما رأى الفارّون من المسلمين ذلك وسمعوا العباس يناديهم أخذوا يتلاحقون به ويرددون: "لبيك لبيك"، حتى أن من لم يستطع منهم أن يثني بعيره ويعود به أخذ سلاحه وتركه، فاشتد القتال من جديد، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (هذا حين حمي الوطيس)، وأخذ تراباً أو حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار وهو يقول: (شاهت الوجوه)، (انهزموا ورب محمد)، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولم تصمد هوازن وثقيف طويلاً في الجولة الثانية، بل فروا من الميدان وتعقَّبهم المسلمون بعيداً عن حنين تاركين وراءهم قتلى كثيرين وأموالاً عظيمة في الميدان، ولم يتمكنوا من الانسحاب المنظم حتى أنهم تركوا خلفهم شراذم من الجيش تمكَّن المسلمون من القضاء عليها بسهولة، فكانت خسارتهم في الأرواح خلال الهزيمة أعظم من خسارتهم خلال المعركة، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتعقب الفارين وقتلهم لإضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع والقتال، وقد أباح سَلَبَ المشرك لقاتله، ولكنه نهى عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة فقال: (ما كانت هذه تقاتل)، وكذلك نهي عن قتل الذراري لما بلغه أن بعض المسلمين يقتلونهم، فلما ذكروا : "إنما هم أولاد المشركين؟"، قال: (أو هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها).

ولم يعنِّف الرسول صلى الله عليه وسلم أحداً ممن فرَّ عنه، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية رضي الله عنها أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال: (إن الله قد كفى وأحسن)، وكانت أم سليم تحمل خنجراً تدافع به عن نفسها في المعركة.

وقد بلغ قتلى هوازن خلال المعركة اثنين وسبعين قتيلاً من بني مالك من ثقيف وحدهم حسب رواية ابن إسحق، وقتيلين من الأحلاف من ثقيف لأنهم سارعوا إلى مغادرة ميدان المعركة، وخلال الهزيمة ثلثمائة قتيل من بني مالك فقط قتلهم المسلمون بقيادة الزبير بن العوام رضي الله عنه في أوطاس، كما قتل عدد آخر في أوطاس، وقد قتل أبو

طلحة رضي الله عنه وحده عشرين رجلاً منهم وأخذ أسلابهم، كما قُتِلَ المئات من بني نصر بن معاوية ثم من بني رئاب حيث استحر فيهم القتل وهم من أهم فروع هوازن.

وهكذا كانت خسارة هوازن وثقيف في الأرواح جسيمة فضلاً عن الجرحى، وأما السبي فقد بلغ ستة آلاف في رواية سعيد بن المسيب، ووصف الزهري كثرة السبي بقوله: وملئت عُرُش مكة منهم، وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفاً، وأما الشاة فكانت أكثر من أربعين ألف شاة، وكان معهم خيل وبقر وحمير لكن المصادر لم تذكر عدد ما غنمه المسلمون منها، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحبس الغنائم في الجعرانة لحين عودته من حصار الطائف.

وأما تضحيات المسلمين فتتمثل في استشهاد أربعة منهم، وإصابة عدد منهم بجروح منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن أبي أوفى وخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين.

ولعل خسارتهم الطفيفة هذه في الأرواح ترجع إلى أن الجولة الأولى التي أدبروا فيها كان القتال خلالها في الغالب تراشقاً بالسهام، وكان الالتحام في الجولة الثانية أكثر لكن الدائرة كانت على هوازن وثقيف فكانت معظم إصابات المسلمين جروحاً شفوا منها، ومما يدلّ على سلامة جيش المسلمين أنهم طاردوا المنهزمين في حنين إلى مسافات بعيدة.

كما أنهم اتجهوا إلى حصار الطائف مباشرة دون استجمام يزيل عنهم آثار هذه الموقعة الحاسمة، فإن المسلمين قدَّموا كل جيشهم وكذلك فعلت هوازن، وكانت العرب والأعراب تنتظر مصير المعركة لتتخذ موقفها الأخير من الإسلام، فلما هزمت هوازن أقبلت الوفود تعلن الدخول في الدين الجديد.

تعقب الفارين نحو نخلة وأوطاس

انهزمت هوازن وتفرقت في الجبال والأودية، وتحصن مالك بن عوف النصري بالطائف، في حين عسكر آخرون منهم بأوطاس - وهو واد بين الطائف وحنين - وعسكر بنو غيرة من ثقيف في نخلة بين سبواحة والشرائع حنين.

وقد تبعت خيل المسلمين من سلك في نخلة من هوازن، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا عامر الأشعري رضي الله عنه إلى أوطاس فقاتلهم وقتل دريد بن الصمة، ثم أصيب بسهم وهو يقاتلهم فاستشهد بعد أن استخلف أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، وأوصاه بتبليغ السلام لرسول الله وأن يطلب منه أن يستغفر له، وقد دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم لما أبلغه أبو موسى ذلك.

وممن وقع في الأسر الشيماء أخت الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة حيث تضافرت الأحاديث المرسلة من ابن إسحق وغيره على إكساب هذه الحادثة القوة التاريخية، وقد أكرمها الرسول بعد أن استدل على صحة ما تقول، من عضة عضها لها أيام رضاعه في بني سعد، كما تدلّ روايات ليست قوية - لكنها تتضافر لإسناد الخبر التأريخي - على أن أمه من الرضاعة حليمة السعدية قدمت إليه فأكرمها وطوى لها ثوبه لتجلس عليه.

غزوة الطائف

بعد أن شتَّت المسلمون هوازن وتعقبوها في نخلة وأوطاس، اتجهوا إلى مدينة الطائف التي تحصنت فيها ثقيف ومعهم مالك بن عوف النصري قائد هوازن.

وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها القوية وحصونها الدفاعية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة، وهيأت من وسائل الحرب ما يكفل لها الصمود طويلاً، وكان وصول المسلمين إلى الطائف في حدود العشرين من شوال دون أن يستجمّ الجيش طويلاً من غزوة حنين وسرايا نخلة وأوطاس التي بدأت في العاشر من شوال واستغرقت أكثر من أسبوع.

وقد حاصر المسلمون الطائف بضع عشرة ليلة، وقد سلك المسلمون في تقدمهم نحو الطائف طريق نخلة اليمانية ثم قرن المنازل - على بعد ٨٠ كيلاً عن مكة و ٥٣ كيلاً جنوب الطائف - ثم المليح من وديان الطائف، ثم بحرة الرغاء على بعد ١٥ كيلاً جنوب الطائف، وذلك لأن الطائف يستحيل اقتحامها من ناحية الشمال حيث التضاريس الجبلية المعقدة التي تعطيها تحصيناً طبيعياً.

وقد نزل المسلمون قريباً من حصون الطائف فكانوا في متناول سهام ثقيف فأصيب بعضهم فتحولوا بعسكرهم إلى الموضع الذي بنى فيه مسجد، "وهو المعروف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس"، والطائف قديماً كانت إلى الجنوب الغربي من المسجد، وكان القتال تراشقاً بالسهام على بعد، وقد استخدم المسلمون آلة من الخشب الثخين المغلف بالجلود مركبة على عجلات مستديرة – اسم الآلة الدبابة - احتموا بها من السهام حتى وصلوا إلى الأسوار ليثقبوها، فألقت ثقيف عليهم قطع حديد محماة، - وخرج المقاتلون من تحتها فأصابتهم السهام، وهذه هي أول غزوة يستخدم فيها المسلمون آلات لضرب الحصون، وقد اشتهرت جرش اليمانية - التي لا تزال أطلالها قائمة أعلى وادي بيشة- بصناعة الدبابات والمجانيق والضبور، ويذكر ابن إسحق أن اثنين من وجوه ثقيف كانا يتعلمان في جرش صنعة هذه الآلات للاستفادة منها في الدفاع عن الطائف.

أما عن حصول المسلمين على آلات الحرب هذه حيث ضربوا الحصون بالمنجنيق، فقد ذكر أن خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه جاء بمنجنيق ودبابتين من

جرش في حين تفيد رواية أخرى أن سلمان الفارسي عمل المنجنيق بيده، ومن الواضح أن آلات فك الحصار لم تكن متوافرة للمسلمين بالقدر الكافي.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتحريق بساتين العنب والنخيل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف التي ناشدته ألّا يفعل فتركها بعد أن أحدثت المحاولة أثرها في إضعاف معنوياتهم.

وكذلك وجه نداء لعبيد الطائف أن من ينزل منهم من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حرّ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي رضي الله عنه فأسلموا فأعتقهم، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامها.

ورغم ما واجهته ثقيف من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون لينالوا درجة في الجنة وعدهم بها رسول الله، فإنها صمدت أمام الحصار، وقد كثرت الجراحات في المسلمين، واستشهد منهم اثنا عشر رجلاً، في حين لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة بسبب امتناعهم بالحصون والأسوار.

وتدل رواية صحيحة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقصد بحصار الطائف فتحها، بل كسر شوكة ثقيف وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاءوا دخلوها، وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليشق على المسلمين، ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان، وليس له إلا الإسلام أو الاستسلام طال الوقت أم قصر، كما أنه كان يحرص على ثقيف فهم إن تحولوا إلى الإسلام كانوا مادَّة له، وكان يطمح لإسلامهم وقد سعى لنشر الدعوة فيهم منذ المرحلة المكيَّة، ودعا لهم بالهداية بعد أن رفضوا دعوته وآذوه، وقد سأله بعض الصحابة أثناء حصار الطائف أن يدعو على ثقيف فدعا لهم بقوله: (اللهم إهد ثقيفاً).

لا غرابة إذاً في أن يدعو الرسول أصحابه إلى فك الحصار، فلما رأى حرصهم على القتال في أوله سمح لهم ببعض المناوشات التي أثبتت لهم أن لا جدوى من القتال، عندئذ أعاد عليهم الرسول فكرة فك الحصار فأظهروا الرضا بهذا القرار الحكيم، وعادوا إلى الجعرانة، فوصلوها في اليوم الخامس من ذي القعدة.

وفي الجعرانة كانت تقبع غنائم حنين الجليلة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخَّر قسمتها، ولم يعجل بالقسمة حتى بعد عودته من حصار الطائف - سوى بعض

الفضة التي قسمها إثر العودة من حصار الطائف - ، بل انتظر بضع عشرة ليلة متطلعاً إلى قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام، لكنها أبطأت عليه، فقسم الغنائم، والأصل أن الغنيمة يؤخذ منها الخُمُس يتصرف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وفقاً للتوجيه القرآني: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

وأما الأربعة الأخماس الأخرى فهي حصة المقاتلين الذين شهدوا القتال، توزع بينهم بالتساوي للرجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، هذا في غنيمة الأموال المنقولة، وأما الأموال غير المنقولة فالإمام مخير فيها بين قسمتها أو وقفها واعتبارها ملكاً عاماً للدولة، وأما الأموال التي يحوزونها دون قتال فتسمى بالفيء ويصرف في المصالح العامة وفقاً لاجتهاد الحاكم، وقد يعطي الحاكم النفل لبعض المقاتلين المبرزين من الغنيمة قبل إخراج الخمس منها أو بعده، كما يجوز أن يعطيهم من الخمس، وكذلك يأذن لهم بأخذ سَلَب من قتلوه من المشركين.

وقد تم توزيع غنائم حنين بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء تأليفاً لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام، وعدم تمكين معاني الإيمان من قلوبهم، فأعطى مائة من الإبل لكل من عيينة بن حصن - من زعماء غطفان - والأقرع بن حابس - من زعماء تميم-، وعلقمة بن علاثة والعباس بن مرداس وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية - من زعماء قريش - رضي الله عنهم، وقد بلغ عدد أصحاب المائة من الإبل إثني عشر رجلاً، وخمسة آخرين أخذوا أقل من المائة من الإبل، كما ذكر ابن هشام أسماء تسعة وعشرين رجلاً من المؤلفة قلوبهم، وزاد غيره ثلاثة وعشرين، فصار جملة العدد اثنين وخمسين رجلاً.

وقد استمالت هذه الأعطيات قلوب هؤلاء الزعماء وأتباعهم فأظهروا الرضا بها وزادتهم رغبة في الإسلام، ثم حسن إسلامهم جميعاً فأبلوا في الإسلام بلاءً حسناً، وخدموه بأنفسهم وأموالهم إلا يسيراً منهم مثل عيينة بن حصن الفزاري فلم يزل مغموزاً.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها".

وقد عبَّر بعض المؤلفة قلوبهم عن أثر ذلك فقال صفوان بن أمية: "لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ".

لقد كان صفوان بن أمية رضي الله عنه من المؤلفة قلوبهم، وكان يحب أن يناله من أعطيات الرسول صلى الله عليه وسلم فكلما أعطاه سأله المزيد، فبيَّن له النبي صلى الله عليه وسلم نظرة الإسلام إلى المال ووعظه، فإذا به يرغب حتى عن أخذ عطائه السنوي من بيت المال، مما يوضح ما حدث من تحول عظيم في نفوس المؤلفة قلوبهم التي تشبعت بمعاني الإسلام على مر الأيام.

وقد تأثر بعض المسلمين في بداية الأمر لعدم شمولهم بالأعطيات فكان لابد من بيان الحكمة لهم في ذلك، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم موضحاً: (والله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحبّ إليَّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير).

وقال : (إني لأعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم).

وقال: (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبَّه الله في النار).

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأنصار وجدوا في أنفسهم لعدم أخذهم شيئاً من الأعطيات، وأن بعض أحداثهم قالوا: "إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا"، وقالوا: "يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم"، فجمعهم في قبَّة من أدم وقال: (إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألّفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم، لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار)، فلما وضحت لهم الحكمة من التوزيع، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وكلهم إلى إيمانهم، فهم مثال للتضحية والتجرد في سبيل العقيدة، ولم تكن الدنيا همُّهم ولا المال مقصدهم، فلما عرفوا سبب منع الأعطيات عنهم أعلنوا رضاهم بذلك، ما دام فيه إعزاز الإسلام ومصلحة العقيدة التي يفتدونها بكل عزيز وغال من نفس ومال، وكيف لا يرضون وقد أدركوا أن الرسول القائد قدَّمهم على سواهم، واعتمد على إخلاصهم للعقيدة ووكلهم إلى إيمانهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، فقد بكوا بعد سماع كلامه وقالوا: (رضينا برسول الله قسماً وحظاً).

وقد أظهر بعض الأعراب المشتركين في غزوة حنين جفاءً وغلظةً عند قسمة الغنائم بالجعرانة، فقال أحدهم : مخاطباً الرسول عليه الصلاة والسلام: "اعدل"، فقال: (شقيت إن لم أعدل)، وقد غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كلام الأعرابي فطلب من

الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بقتله، فأبى عليه وقال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي).

ولا غرابة في موقف الأعراب وهم إنما خرج معظمهم طلباً للغنائم، وقد ازدحموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم غنائم حنين حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: (أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة - شجر وكان يملأ المكان - نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً)، ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: (والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم)، ثم ذكر لهم تحريم أخذ شيء من الغنائم قبل قسمتها، فجاء رجل أنصاري بخيوط شعر مكببة كان قد أخذها من الغنائم فألقاها، ولما مات كركرة مولى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (هو في النار)، ففتشوا في متاعه فوجدوا عباءة قد غلَّها.

وهكذا كانت تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة لحماية الأموال العامة، وموقف الأنصاري يدل على الورع والالتزام بأوامر الرسول حتى في المال اليسير الذي لا قيمة له مثل خيوط الشعر التي أعادها.

وقد ظهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من الصبر على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم خُلُقه ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربياً ومصلحاً، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون وكانوا دونهم محجوبين، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحدهم يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنّون له في أنفسهم المحبة العظيمة.

وبعد قسمة الغنائم، قدم وفد من هوازن يعلن إسلامها، ويطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ردُّ الأموال والسبي عليهم، فخيَّرهم بين السبي والمال، فاختاروا السبي، فخطب الرسول في المؤمنين فقال: (إن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)، فقال الناس: "طيبنا يا رسول الله لهم"، فقال

لهم: (إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم)، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا.

ويلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يَعُود السبي إلى هوازن عن طيب نفس المقاتلين، لأن الغنيمة من حقّهم، فلا بد أن يتنازلوا عنها برضاهم ووعد من لا يرضى بتعويضه عن السبي، وتأكَّد من ذلك عن طريق العرفاء المسئولين عن الجند، وقد تنازل معظم الجند عن السبي سوى الأقرع بن حابس رضي الله عنه وتكلم باسم قبيلة تميم كلها، وعيينة بن حصن رضي الله عنه وتكلم باسم قبيلة فزارة، فوعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعويضهم عنها.

وقد سرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه بالطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاءه مالك مسلماً فأكرمه وأمَّره على قومه وبعض القبائل المجاورة الأخرى.

وقد حسن إسلام مالك، فكان يقاتل ثقيفاً في الطائف حتى ضيَّق عليهم، وفكر زعماؤهم في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحركاً ولا تجارة، ومال بعض زعمائها إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذَّن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف.

ولكن زعماء ثقيف كانوا يحسُّون بحراجة موقفها، ويسعون لتأمين أنفسهم وأموالهم، فأرسلوا في رمضان من العام التاسع - بعد عودته صلى الله عليه وسلم من تبوك - وفداً منهم برئاسة عبد ياليل بن عمرو ومعه ثلاثة من بني مالك واثنين من الأحلاف، وقد لقيهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في وادي قناة شمال المدينة بيسير، فأخبر بقدومهم أبا بكر رضي الله عنه الذي سارع لتبشير الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد علمهم المغيرة رضي الله عنه تحية الإسلام وأدب مخاطبة الرسول، وقد أنزلهم الرسول في قبة في ناحية مسجده ليستمعوا القرآن ويشاهدوا صلاة المسلمين فيه، وقد أعلنوا إسلامهم، وكتب لهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم كتاباً، وقد طلبوا من الرسول أن يؤخر هدم اللات ثلاث سنين - خوفاً من غضب قومهم - فأبى إلا أن يهدمها، ولكنه أعفاهم من القيام بذلك وأرسل أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما لهدمها، كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة لأنهم يرون فيها دناءة!! لما فيها من انحناء وسجود لله تعالى، وكأنهم نسوا أنهم يفعلون ذلك للات وغيرها من الأصنام والأحجار!! فأبى عليهم قائلاً: (لا خير في دين ليس فيه ركوع)، واشترطوا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، وقد وافقهم، وسمعه جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: (سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا)، وسألوه أن يسمح لهم بترك الوضوء بحجة أن بلادهم باردة، وأن ينتبذوا في الدباء -القرع-، وأن يعيد لهم أبا بكرة الثقفي فأبى عليهم ذلك كله، وكان عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين فأمَّره الرسول على الطائف، وكان أصغرهم سناً.

وبعد إسلام وفد ثقيف سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أسئلة كثيرة تتعلق بأمور دينهم، حتى سألوا الصحابة عن كيفية تقسيم القرآن إلى أحزاب فقالوا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا :نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم، وهو نفس ترتيب القرآن المعروف الآن، ويبدوا أن الوفد تأثر بمقابلاته مع الرسول صلى الله عليه وسلم وباختلاطه مع الصحابة وما جرى من حوار بينهم وبين المسلمين حتى أنهم صاموا ما بقي عليهم من شهر رمضان.

وقد مكث الوفد خمسة عشرة يوماً في المدينة ثم عادوا إلى الطائف ومعهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنهما ليهدما اللّات، وقد حكى ابن إسحق وصفاً لحادثة هدم اللات واجتماع النساء الثقفيات حولها يبكين حتى أتم المغيرة هدمها وأخذ مالها من الذهب والجزع، وأهل الطائف يظنُّون أنها ستثأر لنفسها، وقد سخر منهم المغيرة فرمى معوله وركض، فقالوا: ثأرت الربة! فضحك ونصحهم بتوحيد الله وعاد فأنجز عمله، وبذلك زالت أسطورة اللَّات التي عبدت طويلاً من دون الله.

وفيما يلي بيان أهم الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة، لما في بيان تواريخ التشريعات من فوائد عظيمة فبها يعرف الناسخ والمنسوخ فيمكن الترجيح عند التعارض، وتبين علل الأحكام بمعرفة الظروف والملابسات التي أحاطت بتشريعها.

ومن الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١- جواز الاستعانة بالمشركين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم باستعارة الدروع من صفوان ابن أمية، مع ضمانه صلى الله عليه وسلم لها، ولا تكون الاستعانة بهم إلا بشرط الوثوق بهم، وألا يغلبوا على المعركة ويصبغوها بصبغتهم، بل يكون حكم الإسلام هو الغالب.

٢- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنيمة، إذا رأى الإمام أن ذلك يعين على دخولهم في الإسلام أو دفع أذاهم عن المسلمين، أو جلب نفع للمسلمين، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها".

مسجد الضرار

وقد ابتنى المنافقون مسجداً قبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين ومضرَّة بهم، وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على المسلمين، وقد أرادوا أن يفرقوا اجتماع المؤمنين في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بصرف بعضهم للصلاة فيه، وقد طلب المنافقون من الرسول أن يصلي فيه تمويهاً على الناس.

فنهاه القرآن عن ذلك وسماه مسجداً ضراراً: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

غزوة تبوك

وقعت هذه الغزوة في رجب من صيف عام تسع للهجرة بعد العودة من حصار الطائف بستة أشهر تقريباً، قال الحافظ ابن كثير: "فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وتميز هذه الغزوة وغزوة مؤتة التي سبقتها بأن وجهتها إلى الروم ونصارى العرب، في حين كانت الغزوات والسرايا الأخرى وجهتها إلى يهود والقبائل العربية المشتركة.

وكانت النصرانية قد فقدت روحها وأضاعت تعاليمها وانقسمت إلى فرق عديدة، ومنشأ الخلاف في عقيدتهم في المسيح عليه السلام، وحاول هرقل التأليف بين الفرق الدينية حفاظاً على الإمبراطورية الرومانية دون جدوى، وقد أوقعت الإمبراطورية الاضطهاد بسكان الشام ومصر اليعاقبة -المنوفستية- مما أدى إلى نفي بعض كبار رجال الدين من مصر وفرار بعضهم الآخر.

ولم يقتصر الفساد على النواحي العقيدية بل امتدَّ إلى سائر جوانب الحياة، فالظلم والاستبداد، وكثرة الضرائب وثقلها على الشعوب، والروح الطبقية التي تجعل الناس متفاوتين في المكانة بحكم المولد والانتماء للطبقة، كل ذلك كان يعشعش على البلاد، حتى إنه لم تعد ثمة فروق أساسية بين حياة النصارى والمشركين، وقد أمر الله تعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين، ولكنه وافق على احتفاظهم بدينهم إذا خضعوا سياسياً للمسلمين وأدوا إليهم الجزية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وبذلك دخل المسلمون مرحلة جديدة بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم أهل الكتاب من يهود إلى قتال أهل الكتاب من النصارى، هذا التحول الذي يتَّسق مع طبيعة الإسلام وأهدافه في الحياة والذي تعتبر غزوة تبوك أحد شواهده.

وتبوك موقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨ كيلاً، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك، وقد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم بتبوك،

وسميت بغزوة العسرة أيضاً لما كان أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها، والذي تدل عليه أيضاً الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، وقد بيَّن كل من قتادة ومجاهد أن "الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها"، ولا يعرف إن كانت الأزمة الاقتصادية وقت هذه الغزوة ترجع إلى توقيت الحملة قبل جني ثمار التمر وبيعه أم أنها ترجع لعوامل أخرى أبعد.

المنفقون على جيش تبوك

وقد حثَّ الرسول صلى الله عليه وسلم على النفقة ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه أكثر المنفقين على جيش تبوك، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من جهَّز جيش العسرة فله الجنة)، فجهزهم عثمان رضي الله عنه حيث جاء بألف دينار فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يرددها مراراً، وثبت أن الصحابة أقرُّوا له بتجهيز جيش العسرة، وهم ثلاثون ألف مقاتل فلابد أنه أنفق نفقة عظيمة في ذلك.

ولم يجد فقراء المسلمين إلا أن يتقدموا باليسير الذي يقدرون عليه فجاءوا على استحياء متعرضين لسخرية المنافقين، فقد جاء خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بصاع تمر فلمزه المنافقون، وجاء أبو عقيل رضي الله عنه بنصف صاع من تمر، فقال المنافقون: "إن الله لغني عن صدقة هذا!!، وما فعل هذا الآخر إلا رياء"، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، فهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من فقر الفقراء.!!

موقف المنافقين في غزوة تبوك

وقد استعلن أمر النفاق في هذه الغزوة وقام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير، فمضوا يثبطون الناس ويقولون: "لا تنفروا في الحر"، فقد كان الحر شديداً، وكان الناس يفيئون إلى ظلال الأشجار، فكان المنافقون يستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل وقد ذهب بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه بالتخلف مبدياً الأعذار الكاذبة،

حتى عاتب الله نبيه على إذنه لهم: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، وقد وصف القرآن منافقي الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً من منافقي أهل المدينة، لأنهم أقسى قلوباً وأقلّ علماً بالسنن والأحكام: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، وهكذا فإن النفاق لم يكن منحصراً في المدينة بل امتدَّ إلى البوادي: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، وقد نهى القرآن عن قبول أعذار المنافقين وتصديقهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ووصفهم القرآن بأنهم رجس.

وهكذا وضعت الحواجز بين المؤمنين والمنافقين، ولم يعد التعامل مع المنافقين يقوم على الستر وعدم المجابهة، بل صارت المفاصلة أساساً للتعامل، فقد فضحهم القرآن الكريم، وامتنع الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار الذي بنوه وأحرقه، كما أمتنع عن الصلاة على أمواتهم، وكان قد صلى على عبد الله ابن أبي بن سلول حين موته عقب عودة المسلمين من تبوك، ثم منعه الله من ذلك: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، وقد تخلف معظم المنافقين عن الغزوة ومضى بعضهم الآخر مع الجيش يقتنصون الفرص للكيد والإرجاف.

وقد استنفرت قبائل العرب للقتال كما تدل على ذلك سورة التوبة، أما داخل المدينة فقد أعلن النفير، وذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فقد ذكر مجاهد أنها نزلت في غزوة تبوك حيث أمروا بالنفير حين جني التمر وطيب الثمار واشتهاء الظلال، فشقّ عليهم المخرج، وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً وشيوخاً وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولما استأذن بعضهم في التخلف عن الغزوة نزل فيهم قرآن: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، إذ كانت تبوك بعيدة عن المدينة والسفر إليها شاقاً، ولم تكن غنيمة سهلة، فتخلف الأعراب والمنافقون وعدد يسير من الصحابة رضوان الله عليهم من أصحاب الأعذار سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر عن شهود هذه الغزوة.

مسارعة المؤمنين إلى الجهاد

ونظراً لبعد السفر وكثرة الأعداء فقد كشف الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين عن وجهته ليستعدُّوا لذلك، خلافاً لنهجه في الحروب فإنه لا يعلن وجهته حتى لا يصل الخبر إلى عدوه فيأخذوا أهبتهم.

وقد سارع المؤمنون إلى الخروج في هذه الغزوة، حتى إذا طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يخلفه في أهله، قال : "يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟"، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي)، وهكذا شأن أصحاب العقيدة لا يفرحون بالثمار والظلال بل يؤثرون الحر والظمأ والجوع في سبيل الله، فهي غنيمتهم التي يدَّخرونها لآخرتهم.

قال أبو خيثمة الأنصاري رضي الله عنه : "تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت حائطاً فرأيت عريشاً قد رش بالماء، ورأيت زوجتيَّ فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله صلى الله عليه وسلم في السَّموم والحَرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كن أبا خيثمة فجئت، فدعا لي).

وقد حزن الفقراء المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فهذا عُلبة بن زيد رضي الله عنه أحد البكاءين صلى من الليل وبكى، وقال: "اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغّبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض"، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد غفر له.

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضي بعض الوقت فحلَّ لهم على ثلاثة من الإبل.

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾، وقد خصّ النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم واستقامت طويتهم بقوله: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم)، قالوا : "يا رسول الله وهم بالمدينة؟"، قال : (وهم بالمدينة حبسهم العذر)، وقد حكى كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لم يبق بالمدينة إلا المنافقون وأهل الأعذار من الضعفاء.

عدد جيش تبوك

ويبدو أن أغلب المؤرخين يميلون إلى القول أنهم كانوا ثلاثين ألفاً، وعشرة آلاف فرس، وهو عدد يدل على مدى استجابة المؤمنين لدواعي العقيدة في تلك الظروف القاسية من الحر الشديد والعسرة، وهو أكبر جيش قاده الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، ويذكر الواقدي أنه لما اجتمع الجيش مضى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى ذي خشب على ٤٠ كيلاً من المدينة في طريق الشام، ومنها انطلق إلى تبوك وكان دليله علقمة ابن الفغواء الخزاعي رضي الله عنه.

وفي تبوك أعطى اللواء الأعظم للصديق رضي الله عنه والراية العظمى للزبير رضي الله عنه، وراية الأوس إلى أسيد بن حضير رضي الله عنه ولواء الخزرج إلى أبي دجانة رضي الله عنه ويقال إلى الحباب ابن المنذر رضي الله عنه، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء وراية، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية

.

المتخلفون عن غزوة تبوك

وقد تخلف عن غزوة تبوك ثلاثة من الصحابة وهم : كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي رضي الله عنهم، والثلاثة من الأنصار المعروفين بحسن إيمانهم، فقد شهد كعب بن مالك رضي الله عنه سائر الغزوات قبلها سوى بدر، كما

شهد بيعة العقبة الثانية، وقد سوَّف في الاستعداد للغزوة ولم يكن يعتزم التخلف عنه، ولكن غلبه التسويف، والميل إلى الظلال والثمار حتى خرج الناس!!

وأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فكلاهما قد شهد بدراً، كما تخلف عنه بعضة وثمانون رجلاً آخرون، وقد تفقَّد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف وسأل أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه عمن تخلف من بني غفار واسلم كما سأل في تبوك عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

وقد عقَّبت سورة التوبة بتفصيل على موقف المتخلفين، فأنكرت عليهم التخلف عن النفير العام حيث تحول الجهاد بذلك إلى فرض عين، ثم أعلنت قبول توبتهم وأخذ صدقات أموالهم بعد اعترافهم بذنوبهم في التخلف عن الغزوة وطلبهم قبول صدقاتهم منهم.

كما عرَّت السورة المنافقين، وأنهم لا يؤمنون بقدر الله ويحبون الحياة ويرغبون عن الجهاد بالنفس خوفاً من الموت، وقد ينفقون المال كرهاً دون نية صالحة، وقد رفض القرآن عذرهم وأعلن كفرهم ونهى عن الاستغفار لهم والصلاة على أمواتهم، وتوعدهم بالبكاء طويلاً في جهنم مقابل ضحكهم في الدنيا الفانية، ومنعهم من المشاركة في الجهاد مستقبلاً تبكيتاً لهم وتنقية لصف المؤمنين من أمثالهم، وتمييزاً لهم عن المؤمنين لئلا يشيعوا فيهم الضعف والخذلان، وقد أرجأت إحدى الآيات البتّ في أمر بعض المتخلفين الذين ندموا على تخلّفهم وهم من غير المنافقين المعتذرين والمتخلفين المعترفين بخطئهم.

وقد عاتبت هذه السورة المتخلفين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب مبيّنة عظيم أجر الجهاد، وما ذلك إلا لأنَّ الجهاد يصير متعيناً وقت النفير العام.

الوصول إلى تبوك

وفي تبوك أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه مع عدد من الصحابة إلى **دومة الجندل**، حيث أسر أُكيدر بن عبد الملك الكندي - ملكها - وهو في الصيد خارجها، فصالحه النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية، وقد تعجب المسلمون من قباء كان أُكيدر يلبسه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد ابن معاذ في الجنة أحسن من هذا)، وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.

وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية، ولم يقع قتال مع الروم في هذه الغزوة بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم والقبائل العربية المتنصرة وآثر حكام المدن الصلح على الجزية.

وقد مكث الجيش عشرين ليلة في تبوك ثم عادوا إلى المدينة.

العودة من تبوك

وفي طريق العودة من تبوك إلى المدينة مرَّ المسلمون بالحِجر، وهي في ديار ثمود الذين امتحنوا بالناقة فنحروها فأخذتهم الصيحة لعتوِّهم وعصيانهم، وقد سارع الناس إلى دخول بيوت الحجر فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنَّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، كما نهاهم عن شرب الماء من بئرها أو الوضوء منه، وأن يعلفوا إبلهم ما عجنوه من عجين بمائها.

وقد اشتكى المسلمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما أصاب إبلهم من الجهد في طريق العودة فدعا ربَّه: (اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر)، فنشطت بهم حتى أبلغتهم المدينة ولم يشتكوها.

وفي طريق العودة حاول المنافقون وهم متلثمون لا يُعرفون تنفير دابة الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى الثنايا لتطرحه، ففطن لهم وأمر بإبعادهم.

ولما اقترب الجيش من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه، ودخل المدينة فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء كعب بن مالك وقد سبقه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم، وقد أقر الثلاثة بأنه لا عذر لهم في تخلفهم عن الغزوة، ولم يرضوا أن يضيفوا إلى ذنب التخلف ذنباً جديداً وهو الكذب، فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الكلام مع الثلاثة، فاجتنبهم الناس خمسين ليلة وأمرت نساؤهم باعتزالهم، فذهبن عند أهلهن إلا زوجة هلال إذ كان شيخاً كبيراً فبقيت لخدمته فقط بإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ضاقت بهم الدنيا، وحاول ملك الغساسنة استغلال الموقف فراسل كعب بن مالك ليلحق به، لكن كعب بن مالك أحرق الرسالة، وقال إنها زيادة في امتحانه، واستمرت المقاطعة حتى نزل القرآن يعلن توبة الله عليهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة خلف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي أمَّ المسلمين في صلاة الفجر بتبوك، حيث تأخر عنهم في حاجته، ولما قدم أراد عبد الرحمن أن يتأخر فأومأ له النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمَّ بهم الصلاة وصلى خلفه، مما يدل على جواز إمامة المفضول وصلاة الأفضل خلفه.

وقد سأله معاذ بن جبل رضي الله عنه عن عمل يدخله الجنة وهما في طريق العودة فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأن رأس هذا الأمر الشهادة وقوامه الصلاة والزكاة وذروة سنامه الجهاد.

وقد سئل صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة عن سترة المصلي؟ فأجاب بأنها مثل مؤخرة الرحل، وطلب الماء من بيت في تبوك وهو في قربة من جلد، وقال عن أهبة الميتة :دباغها طهورها.

وقد أقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة، وقد جمع في الغزوة بين صلاة الظهر والعصر، وكذلك المغرب والعشاء.

لقد حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الأقسام الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وكانت تمهيداً لفتوح بلاد الشام، حيث أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه قبيل وفاته للتوجه إلى الشام، لكن الجيش لم يتحرك نحو أهدافه إلا في خلافة الصديق رضي الله عنه حيث حالت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم دون إنفاذه في حياته، ورغم ظروف الخطر المحدقة بالمدينة وبكيان الإسلام كله بسبب حركة الردة فإن الصديق رضي الله عنه أصرَّ على إنفاذ الجيش، وما أن استتبت الأمور نسبياً حتى جهز الصديق جيوش الفتح إلى بلاد الشام والعراق تحقيقاً لأهداف الدعوة الإسلامية بتحرير البشر من نير الظلم والطغيان والعبودية لغير الله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

عام الوفود

سمّي العام التاسع بعام الوفود، حيث ابتدأت وفود القبائل العربية تقدم من أنحاء الجزيرة العربية معلنة دخولها في الإسلام منذ رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الجعرانة في أواخر سنة ثمان، فقد كانت العرب تلوم بإسلامها الفتح، فلما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وقد بلغ مجموع ما ذكرته المصادر أكثر من ستين وفداً.

فقد ذكر الإمام البخاري قدوم وفد تميم، كما حكت سورة الحجرات بعض ما صدر منهم من الأعمال المتَّسمة بجفاء الطبع، حيث نادوا الرسول عليه الصلاة والسلام بصوت عال من خارج حجرته دون أن يستأذنوا عليه، ولا شك أن سورة الحجرات نزلت لتعليم المسلمين جميعاً بهذه المناسبة أدب مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم والاستئذان عليه.

كما ذكر البخاري قدوم وفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، وأنه اشترط لإسلامه أن يكون له الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له إنه لو سأله قطعة جريد ما أعطاه، وأشار إلى ما سيكون منه من فتنة!!، وذكر وفد نجران وفيهم العاقب والسيد حاكما نجران، وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأبوا فدعاهم إلى المباهلة لما نزلت آية المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

فأرادا الاستجابة إلى الملاعنة ثم عدلا عن ذلك أن تصيبهم اللعنة، وطلبا منه المصالحة على أن يدفعوا الجزية، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لتحصيلها، ولا شك أن مصالحة أهل نجران على الجزية ربطتهم بدولة الإسلام، وقطعت الأواصر بينهم وبين الروم، فكان ذلك تأميناً لظهر المسلمين وهم يخطِّطون لمواجهة كبيرة مع الروم في الشام.

وقد ذكر البخاري وفد الأشعريين وأهل اليمن كما ذكر وفد دوس ووفد طيء وقدوم عَدِي بن حاتم الطائي رضي الله عنه.

وذكر ابن عباس رضي الله عنه إرسال بني سعد بن بكر لضمام بن ثعلبة رضي الله عنه إلى المدينة، وكان رجلاً جلداً كثير الشعر له غديرتان، فأناخ بعيره على باب

المسجد وعقله، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال: "أيكم ابن عبد المطلب؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا ابن عبد المطلب .قال :محمد؟ قال :نعم، قال :يا محمد إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدنَّ عليَّ في نفسك فأني لا أجد في نفسي، قال :سل عما بدا لك، قال :أنشدك الله ... آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال :اللهم نعم، قال :أنشدك الله ... آلله أمرك أن نعبده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأوثان والأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال :اللهم نعم، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة وينشده عند كل فريضة حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ولا أزيد ولا أنقص ثم أنصرف"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن يصدق دخل الجنة)، ثم رجع ضمام إلى قومه فاجتمعوا إليه فسبَّ أمامهم اللات والعزى، فقالوا : "ياضمام اتق البرص والجذام والجنون!!"، قال: "ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأني قد جئتكم من عنده وبما أمركم به ونهاكم عنه"، فوالله ما أمسى ذلك اليوم من حاضرته رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وعلى أية حال فإنه في العام التاسع ساد الإسلام الجزيرة العربية التي توحدت سياسياً لأول مرة في تاريخها تحت رايته، فرغم أنها عرفت نشوء الدويلات ونظم السياسة قبل الإسلام، إلا أن أية دويلة من تلك الدويلات مثل معين وسبأ وحمير وكندة والغساسنة والمناذرة، لم تتمكن من توحيد الجزيرة العربية تحت رايتها، بل إن حضارات تلك الدويلات كانت قد اضمحلت وطغت البداوة على مراكزها قبل الإسلام.

وقد تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تحقيق وحدة الجزيرة في أقل من عشر سنوات رغم قوة الروح الفردية، وتغلغل العصبية القبلية والنزعات الجاهلية ولم تكن وحدة صورية بل كانت تشابكاً وثيقاً وتجانساً في الروح والعقل والسلوك لذلك صلحت أن تكون لبنة قوية وأساسا متينا قامت عليه الدولة الإسلامية التي بسطت سلطانها على رقعة شاسعة.

حج أبي بكر بالناس عام ٩ هـ

لم يحج الرسول صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة، بل اعتمر ورجع إلى المدينة، وقد حج المشركون والمسلمون معاً في عام ٨ هـ، فلما كان العام التاسع، أمَّر أبا بكر رضي الله عنه على الحج، فخرج في ذي الحجة إلى مكة.

ولما خرج أبو بكر بالناس من المدينة نزلت سورة براءة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصدر سور براءة ليعلنها على الناس في موسم الحج يوم النحر وهو العاشر من ذي الحجة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ولما رأى أبو بكر علياً سأله: "أأمير أم مأمور؟"، قال : "بل مأمور"، فمضيا؛ أبو بكر أمير على الحج وعلي يبلغ صدر سورة براءة، ويساعده عدد من الصحابة في النداء بها منهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنهما، وقد ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه بعث بأربع: "لا يدخل الجنَّة إلا نفس مؤمنة، ولا يطَّوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته".

وقد تضمن صدر سورة براءة مفاصلة مع الوثنية وأتباعها، حيث منعت حج المشركين بعد التاسع وأعلنت الحرب عليهم، لكنها أمهلت المعاهدين منهم إلى انتهاء مدتهم، وأمهلت من له عهد إلى أجل غير محدود أربعة أشهر متتابعة تبتدئ في العاشر من ذي الحجة وتنتهي في نهاية العاشر من ربيع الآخر، وأمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم أي خمسين يوماً تنتهي بنهاية المحرم، فإذا انتهت مددهم صاروا في حالة حرب مع المسلمين ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

لقد مضت على دعوة الإسلام اثنتان وعشرون سنة، بذل المسلمون خلالها كل جهد وسلكوا كل طريق مشروع لتبليغ الدعوة، ومع ذلك أصرَّ بعض المشركين على عبادة الأصنام، والطواف بالبيت العتيق وفق طقوس الجاهلية، وقد آن الأوان لمفاصلتهم ووضع حدِّ لعنادهم وتجاهلهم لدعوة الحق.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ساندته حملة للتوعية والدعوة إلى الإسلام وتنظيم المناطق النائية التي انضمَّت للدولة الإسلامية، فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قبل حجة الوداع إلى اليمن، كلاً منهما على أحد مخلافيها، وأوصاهما بقوله: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا).

وقال لمعاذ: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب).

ثم أرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن، ثم أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكانه فمكث بها، ثم رجع فحجَّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وقد نجح علي في نشر الإسلام في صفوف قبيلة همدان.

حجة الوداع

يمثل الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد فرض في العام العاشر أو التاسع أو السادس على اختلاف الروايات، وفي العام العاشر أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه على الحج وهي المرة الوحيدة التي حجَّ فيها بعد الهجرة إلى المدينة، فتقاطر الناس من أرجاء الجزيرة للحج معه، وخرج من المدينة لخمسٍ بقين من ذي القعدة، ولما وقف في عرفة نزلت عليه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وقد تعلَّم المسلمون مناسك الحج من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لهم: (خذوا عني مناسككم)، فجاءت حجته حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة ما يتعلق بالحج وبالوصايا والأحكام العامة التي ورد في خطبة عرفات.

وقد شهد الموسم معه جمعٌ غفيرٌ من المسلمين، استمعوا إلى خطبة الوداع التي ألقاها في عرفات في وسط أيام التشريق وجاء فيها: (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلا أنّ كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فأنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟)، قالوا: "نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت ونصحت لأمتك، قضيت الذي عليك"، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: (اللهم اشهد اللهم اشهد).

وقد ألقى خُطَباً أخرى في منى وذكر في إحداها: (لا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول صلى الله عليه وسلم الناس في غدير خم قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وأمسك بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه)، وكان علي رضي الله عنه قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع وقد اشتكى بعض الجند علياً وأنه اشتد في معاملتهم، وكان

قد استرجع منهم حللاً وزعها عليهم نائبه، فأوضح لهم النبي صلى الله عليه وسلم في غدير خم مكانة علي، ونبَّه على فضله لينتهوا عن الشكوى.

تجهيز جيش أسامة بن زيد بن حارثة

قفل النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش إلى الشام وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنه، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم طعنهم في إمارة أسامة وأوصى به خيراً، ولكن هذه الحملة تأخرت بسبب مرض الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البدء بتجهيزها بيومين فقط، وكان أسامة قد أخذ اللواء الذي عقده الرسول صلى الله عليه وسلم بيده وعسكر بالجرف.

وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد ألَمَّ المرض بالرسول صلى الله عليه وسلم فاشتكى بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر، وكان بدء شكواه في بيت ميمونة أم المؤمنين، واستغرق مرضه عشرة أيام، ومات في يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول، وهو ابن ثلاث وستين.

وقد صح أن شكواه ابتدأت منذ العام السابع عقب فتح خيبر بعد أن تناول قطعة من شاة مسمومة قدمتها له زوجة سلاّم بن مشكم اليهودية، رغم أنه لفظها ولم يبتلعها لكن السم أثَّر عليه، وقد طلب من زوجاته أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فكانت تمسح بيده عليه لبركتها وتقرأ عليه المعوذتين.

ولما حضرته الوفاة واشتد به المرض قال للصحابة: (هلُمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فاختلفوا فمنهم من أراد إحضار أدوات الكتابة، ومنهم من خشي أن يشقّ على الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، ويبدوا أن ثَمَّة قرائن احتفت بذلك أفادت أن الأمر ليس على الوجوب بل فيه تخيير، فلما قال عمر رضي الله عنه حسبنا كتاب الله، لم يكرر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، ولو كان ما أراد كتابته لازماً لأوصاهم به كما أوصاهم في تلك الحالة مشافهة بإخراج المشركين من جزيرة العرب وبإكرام الوفود، وقد أفادت رواية صحيحة أن طلبه الكتابة كان يوم الخميس قبل وفاته بأربعة أيام، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر، وقد دعا إليه فاطمة رضي الله عنها فسَارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسَارَّها بشيء فضحكت، وقد أخبرت بعد وفاته أنه أخبرها أنه يموت فبكت وأخبرها بأنها أول أهله لحاقاً به فضحكت، وقد كان ذلك فهو من علامات النبوة.

وقد أثقله المرض ومنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، وقد راجعته عائشة رضي الله عنها، فقالت: "إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن"، فأصرَّ على ذلك، فمضى أبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم وخرج النبي صلى الله عليه وسلم مرة يتوكأ على العباس وعلي رضي الله عنهما فصلى بالناس وخطبهم وقد أثنى في خطابه على أبي بكر رضي الله عنه، وبيَّن فضله وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة واختياره الآخرة.

وكانت آخر خطبة له قبل موته بخمس ليال وقال فيها: (إن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة)، ففطن أبو بكر رضي الله عنه إلى أنه يقصد نفسه، فبكى وتعجب الناس منه إذ لم يدركوا ما فطن له.

وكشف في صلاة الفجر يوم وفاته ستر حجرة عائشة ونظر إلى المسلمين وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم وضحك وكأنه يودعهم، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا فرحاً بخروجه، وتأخَّر أبو بكر رضي الله عنه حيث ظنَّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد الخروج للصلاة، فأشار الرسول إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

ودخلت عليه فاطمة فقالت: "واكربَ أباه".

فقال لها: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم).

ودخل عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه فدعا له بالإشارة، إذ كان صامتاً لا يتكلم لثقل المرض.

وكان عندما حضره الموت مستنداً إلى صدر عائشة رضي الله عنها، وقد أخذت سواكاً من أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه فقضمته، وأعدته فاستن به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان يدخل يده في إناء الماء فيمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات)، وأخذته بحة وهو يقول: (مع الذين أنعم الله عليهم)، ويقول: (اللهم في الرفيق الأعلى)، فعرفت عائشة أنه يخيّر وأنه يختار الرفيق الأعلى.

وقبض صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها حين اشتدَّ الضحى، وقيل عند زوال الشمس، ودخل أبو بكر رضي الله عنه وكان غائباً في السنح فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثوباً كان عليه، ثم أكبَّ عليه وقبّله، وخرج إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق من هول الأمر، فرأى عمر رضي الله عنه يكلم الناس منكراً موت الرسول صلى الله عليه وسلم، فاجتمع الناس على أبي بكر فقال: "أما بعد من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾"، فسكن

الناس وجلس عمر رضي الله عنه على الأرض لا تحمله قدماه، وكأنهم لم يسمعوا الآية إلا تلك الساعة.

وقالت فاطمة رضي الله عنها :

يا أبتاه أجاب رباً دعاه.

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه.

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبيه وآله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جدول المحتويات

مقدمة التهذيب ٣
ما قبل البعثة ٥
مكة ٥
الحياة الدينية في مكة ٩
صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ١١
النبي المختار ١١
حفر زمزم ١٢
نذر عبد المطلب ١٢
زواج عبد الله من آمنة ١٢
وفاة عبد الله ١٣
مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل ١٣
صفة حمل آمنة به ١٣
مرضعاته ١٣
معجزة شق الصدر ١٣
قصة بحيرى الراهب ١٤
شهوده حلف المطيبين ١٥
زواجه من خديجة ١٥
صيانة الله له قبل البعثة ١٥
بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ١٦
بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته ١٧
إرهاصات نبوته ١٨
البعثة المحمدية ١٩
الوحي ١٩
مرحلة الدعوة السرية ٢٠
المسلمون الأوائل ٢١

إسلام الجن ٢٤
بدء الدعوة الجهرية ٢٤
أذى المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم ٢٦
اضطهاد قريش للمسلمين ٢٩
لجوء قريش إلى المفاوضات ٣٢
لجوء المشركين إلى المطالبة بالمعجزات لإثبات النبوة ٣٢
الهجرة إلى الحبشة ٣٥
الهجرة الثانية إلى الحبشة ٣٦
إسلام عمر بن الخطاب ٣٨
حصار المسلمين في شعب أبي طالب ٤٠
وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها ٤٠
رحلته إلى الطائف ٤٢
الإسراء والمعراج ٤٢
الطواف على القبائل طلباً للنصرة ٤٤
الاتصال بالأنصار ودعوتهم ٤٥
بيعة العقبة الأولى ٤٧
بيعة العقبة الثانية ٤٧
الهجرة إلى المدينة المنورة ٥٠
أوائل المهاجرين ٥٠
هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ٥٣
خصائص المجتمع المدني وتنظيماته الأولى ٦٢
المجتمع المدني قبل الهجرة ٦٢
اليهود ٦٢
العرب ٦٢
أثر الإسلام في المجتمع المدني ٦٣
الهجرة وأثرها في التكوين الاجتماعي لسكان المدينة ٦٤

المؤاخاة في المدينة ٦٥
تشريع نظام المؤاخاة ٦٦
إلغاء التوارث بين المتآخين ٦٧
استمرار المؤاخاة دون توارث ٦٧
آصرة العقيدة هي أساس الارتباط ٦٧
الحب أساس بنية المجتمع المدني ٦٨
الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد ٦٩
أهل الصفة ٦٩
سكان الصفة ٧٠
انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة والجهاد ٧٠
رعاية النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة لأهل الصفة ٧٢
اعلان معاهدة المدينة (الدستور) ٧٣
كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ٧٤
نقض يهود المدينة للمعاهدة وإجلاؤهم عنها ٧٨
غزوة بني قينقاع ٧٨
الحصار ٧٨
مقتل كعب بن الأشرف ٧٩
إجلاء بني النضير ٨١
سبب غزوة بني النضير ٨١
حصار بني النضير ومعاهدة إجلائهم ٨٢
تحريض بني النضير للمشركين ٨٣
غزوة بني قريظة ٨٤
سبب الغزوة ٨٤
نجاح الحصار ومصير بني قريظة ٨٥
فتح خيبر وبقية المعاقل اليهودية في الحجاز ٨٦
الطريق إلى خيبر ٨٧

وصف فتح خيبر ٨٧
حصن ناعم ٨٨
أثر فتح خيبر ٩١
توزيع غنائم خيبر ٩١
نماذج من المجاهدين ٩٢
جهاد المشركين ٩٤
تشريع الجهاد ٩٤
طلائع حركة الجهاد قبل غزوة بدر الكبرى ٩٨
غزوة الأبواء (ودان) ٩٨
غزوة سيف البحر ٩٩
غزوة بواط وغزوة العشيرة ٩٩
غزوة بدر الأولى ٩٩
غزوة نخلة ٩٩
تحويل القبلة إلى الكعبة ١٠٠
غزوة بدر الكبرى ١٠٣
في أعقاب بدر ١١٥
غزوة قرقرة الكدر ١١٥
غزوة السويق ١١٥
غزوة ذي أمر ١١٥
غزوة بحران ١١٥
غزوة القردة ١١٦
غزوة أحد ١١٨
حمراء الأسد ١٢٩
في أعقاب أحد ١٣٠
غزوة بدر الموعد ١٣٢
دومة الجندل ١٣٣

من تاريخ التشريع ١٣٣
غزوة بني المصطلق – المريسيع. ١٣٤
غزوة الخندق – الأحزاب- ١٤١
في أعقاب غزوة الخندق ١٤٩
سرية الخبط - سرية سيف البحر- ١٤٩
غزوة الحديبية ١٥٠
رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء ١٦١
تأديب الأعراب ١٦٣
غزوة ذات القرد ١٦٣
عُكل وعرينة ١٦٣
غزوة ذات الرقاع ١٦٣
عمرة القضاء ١٦٤
غزوة مؤتة ١٦٦
غزوة ذات السلاسل ١٦٨
فتح مكة ١٦٩
غزوة حنين ١٧٧
المعركة ١٨٢
تعقب الفارين نحو نخلة وأوطاس ١٨٤
غزوة الطائف ١٨٦
مسجد الضرار ١٩٤
غزوة تبوك ١٩٥
المنفقون على جيش تبوك ١٩٦
موقف المنافقين في غزوة تبوك ١٩٦
مسارعة المؤمنين إلى الجهاد ١٩٨
عدد جيش تبوك ١٩٩
المتخلفون عن غزوة تبوك ١٩٩

الوصول إلى تبوك ٢٠٠
العودة من تبوك ٢٠٢
عام الوفود ٢٠٤
حج أبي بكر بالناس عام ٩ هـ.. ٢٠٧
حجة الوداع ٢٠٩
تجهيز جيش أسامة بن زيد بن حارثة ٢١٠
وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ٢١١